بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

طسٓمٓ ﴿٢﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٣﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

المُبين: أبان الشيءُ: اتضح، وأبان فلانٌ الشيءَ: أوضحه. (أقرب الموارد)

باخعٌ: بخَع بالشاة: بلَغ بذبحها القفا (الأقرب). والبَخع: قتلُ النفس غمًّا (المفردات)

التفسير: اعلم أن الطاء في مقطع "طسم" اختزال لاسم الله تعالى اللطيف، والسين للسميع، والميم للمجيد. في هذه السورة والسور التابعة لها في المضمون قد سلّط الله تعالى الضوءَ وقدّم البراهين على كونه محسنًا عظيمًا وعليمًا بخفايا العباد ومجيبًا لدعائهم، وعلى أن قوانينه تؤكد مجده وسمو شأنه، وليس فيها ما يدل على ظلم أو إكراه منه تعالى.*

واعلم أن من أبرز مزايا الإسلام أنه يعرض على الناس صفات الله تعالى بشكل مكتمل لا يوجد له نظير في أي من الكتب السماوية السابقة. لا شك أن كل كتاب سماوي قد قدّم للناس وجود البارئ تعالى وركّز على أهمية الإيمان به ﷻ لأن الله تعالى هو جوهر الدين وأساسه، ولو لم يقدم الدين للناس وجود البارئ تعالى فوجود هذا الدين وعدمه سيّان؛ ولكن فيما يتعلق بصفات البارئ تعالى ونوعية صلته ومعاملته لعباده فهي أمور لم تتحدث عنها الصحف السابقة بالتفصيل. ولا جرم أن مجرد قولنا "الله محبّة" (رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤ : ٨)، أو "أن إلهنا رحيم

* اقرأ شرحًا مفصلاً للمقطعات في الجزء الثالث من هذا التفسير تحت قوله تعالى من سورة يونس: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾. (المترجم)

كريم" لا يقدم صورة حقيقية لصفات الله الحسنى. بل الحق أن نسبة مثل هذه الصفات إلى الله تعالى قد تُعَدّ نتيجة للأفكار الدنيوية والأغراض المادية؛ فمثلا يمكن أن يقال إن هؤلاء القوم لما وجدوا الناس يستحسنون الرحمة قالوا إن الله رحيم، أو لما رأوا أن الناس يشيدون بالإحسان والكرم قالوا إن ربنا محسن وكريم. فثبت أن ذكر الأديان السابقة بعضًا من صفات الله تعالى فقط ليس دليلا على أنها قد ألقت على هذه القضية الضوء المفصل.

ثم إذا كانت بعض تلك الأديان قد ذكرت في كتبها بعض صفات الله الأخرى فهي لم تقم بشرحها، كما لم توضح ما يوجد بين مختلف صفات الله تعالى من صلات.

أتذكّر جيدًا أنني رأيت في الرؤيا مرة أن أحد المسلمين الألمان الجدد يسألني سؤالاً، فأذكر له في الجواب بعض صفات الله تعالى التي منها صفة الرب. فقال لي: إن هذه الصفات مذكورة في التوراة أيضًا. وكان لقوله تفسيران محتملان: أوّلهما أن هذه الصفات مذكورة في التوراة، فلا يمكن أن يكون لهذا الدليل أي تأثير في النصارى، وثانيهما أن القرآن إنما يقلّد التوراة فحسب. ونظرًا إلى هذين المعنيين قلت في نفسي: إن هذا الشخص مسلم جديد، فلربما يقول في نفسه إن معظم تعاليم القرآن تشبه تعاليم التوراة، فما فضل القرآن إذًا؟ وبمجرد أن تولدت هذه الفكرة في نفسي بدأتُ ألقي أمامه خطابًا حماسيا وأقول: إن صفات الله التي ذكرها القرآن مميزة على الصفات التي ذكرتها التوراة. فقد ذكرتها التوراة ذكرًا عاديا كأسماء الله فقط، بينما ذكر القرآن دقائق تلك الصفات وأسرارها ووسّع نطاق مضامينها. وقلتُ: خذوا مثلا صفة الرب التي قد ذكرتها التوراة أيضا، حيث قالت إن الله تعالى خالق أو مربٍّ أو خالق السماوات والأرض، ولكن القرآن لا يكتفي بهذا القول فقط، بل يخبر في سورة الفاتحة أن الله رب العالمين. وكلمتا "رب" و"العالمين" كلتاهما تحتويان على دلالة مميزة، حيث لا يعني لفظ "الرب" أن الله تعالى خالق أو مربٍّ فحسب، بل يدل أيضا على أنه يطور بالتدريج ما في الإنسان من دقائق القوى والقدرات على أحسن وجه. ثم إن كلمة "العالمين" أيضًا لا تتضمن

معنى الأرض والسماوات فحسب، بل تدلّ أيضا على شتى الكيفيات والحالات التي تكون فيها شتى المخلوقات الأخرى؛ فكلمة ﴿ربّ العالمين﴾ تعني أن الله تعالى رب هذا العالم، كما أنه رب العوالم الأخرى أيضا؛ وأنه رب السماوات ورب الأرضين أيضا؛ وأنه رب عالم الأجسام وعالم الأرواح، وعالم النساء وعالم الرجال، وعالم الفكر وعالم الشعور، وعالم التصور وعالم التقدير، وعالم العقل؛ بمعنى أنه لا يهيئ لنا الخبز المادي ولا يمدّنا بما ينمّي الأجسام فقط، بل يهيّئ الأسباب لتنمية الأرواح أيضا. كما أنه أمرنا في القرآن الكريم بتنمية كل ما في الفطرة الإنسانية من عواطف وحاجات. فلم أزل في الرؤيا ألقي أمام هذا المسلم الجديد خطابا مستفيضا حول هذا الموضوع في متعة وسرور، وكنت أشعر أنه قد انكشف عليّ معنى جديد وأنني في حالة جديدة، إلى أن تنبّهت من النوم.

إذًا، فأوّلاً قد تحدثت الصحف السماوية السابقة عن صفات الله تعالى حديثًا مجملا لا يكشف لنا عظمتها كما ينبغي، وثانيًا إنها لم تشرح تلك الصفات، وثالثًا لم توضح العلاقات الكامنة بين شتى الصفات الإلهية. أما الإسلام فقد قدم للبني الإنسان تعليما جامعا مكتملا، فبيّن أن صفات الله تعالى نوعان: أوّلهما الصفات التنزيهية التي تنزه الله تعالى وتقدّسه عن كل ما يوجد في المخلوقات والأشياء المادية من خواص، وثانيهما الصفات التشبيهية أي صفات الله التي تبدو مشابهة لصفات المخلوقات. فالإسلام يخبرنا أن الله تعالى - الذي هو المحور للكون كله - هو أحد.. أي أنه وحيد ومنفرد في ذاته. ثم إنه ﴿الصَّمَدُ﴾.. أي الذي يحتاج إليه الجميع، ولا يحتاج هو إلى أحد. وأنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.. أي أنه لم ينجب أي أولاد، كما هو ليس مولودا لأحد. ثم أخبر القرآن الكريم عن الله تعالى أنه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.. أي ليس ثمةَ قوة تعمل مع الله جنبًا بجنب، كما ليس هناك قوة تكون ندًّا له تعالى. ثم إنه تعالى ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾.. أي أنه علّةُ العلل لجميع الأشياء، وأن كل المخلوقات ترجع إليه هو. ثم إن الله تعالى ﴿القدير﴾.. أي أنه يملك القدرة كلها على تنفيذ كل ما يريد. ثم إنه ﴿الحيّ﴾.. أي الذي يحيا على الدوام، والذي يهب الحياة للآخرين. ثم إنه تعالى ﴿القيّوم﴾.. أي أنه قائم بذاته

كما أنه سبب قيام كل ما سواه. ثم إنه تعالى ﴿ربُّ العالمين﴾.. أي أنه خالق كل العوالم ومربّيها. وإنه تعالى ﴿الرحمن﴾.. أي أنه قد هيّأ بمحض فضله كل ما يحتاج إليه الناس حتى قبل أن يخلقهم. وإنه تعالى ﴿الرحيم﴾.. أي أنه يأتي بأفضل النتائج لجهود الناس ومساعيهم. وإنه تعالى ﴿مالِك يوم الدين﴾.. أي أنه تعالى، بالإضافة إلى النتائج التي يأتي بها بحسب القوانين الطبيعية، قد جعل لكل عمل نهاية يصدر عندها قراره الأخير، فينال الصالح جزاء حسناته وينال الشرير عقاب سيئاته. ولكن هذا الجزاء أو العقاب يكون خاضعا لمالكية الله تعالى.. أي أنه لا يعاقب العباد فحسب، بل يعفو عنهم أيضا إذا شاء. ثم إنه تعالى﴿العليم﴾.. أي عنده العلم بكل ذرة في الكون بل بكل ما في الفطرة الإنسانية من أسرار خفية. ثم إنه تعالى ﴿السميع﴾.. أي أنه يسمع دعاء الناس وابتهالهم ويستجيب لهم. وإنه تعالى ﴿القهّار﴾.. أي أن كل شيء في قبضة قدرته. وإنه تعالى هو ﴿الجبّار﴾.. أي أنه يصلح كل فساد. وإنه تعالى ﴿الوهّاب﴾.. أي أنه يعطي عباده حظا وافرا من نعمه. وإنه تعالى ﴿الغفور﴾.. أي أنه يتغاضى عن أخطاء عباده. وإنه تعالى ﴿المهيمِن﴾.. أي أنه المحافظ والمراقب لكل شيء. وإنه تعالى ﴿السلام﴾.. أي أنه يهب للناس السلام. وإنه ﴿القابض﴾.. أي أنه يجعل كل شيء في حدّ معين. وإنه تعالى ﴿الباسط﴾.. أي أنه يعطي عباده السعة والرخاء. وإنه تعالى ﴿الرافع﴾.. أي أنه يرفع الإنسان ويوصله إلى أعلى الدرجات. وإنه تعالى ﴿الحفيظ﴾.. أي أنه يحفظ الخلائق ويحميهم. وإنه تعالى ﴿المتكلم﴾.. أي أنه يتكلم مع عباده وينزل عليهم وحيه وإلهامه.

باختصار، إن الإسلام يعرض على العالم إلهًا كامل الصفات. إنه لا يقول كالمسيحية إن الله محبّة، ثم يلزم السكوت. وإنه لا يكتفي كالتوراة ببيان بعض صفات الله تعالى، بل يذكر بالتفصيل جميع صفات الله التي هي وثيقة الصلة بخلق الإنسان. وكأن الإسلام قد كشف جميع أقسام السماء، مما يشكل دليلا بينًا على أنه قد نزل من السماء.

ثم إن الإسلام لم يكتف بتقديم صورة مكتملة لصفات الله تعالى فحسب، بل أخبر الناس أيضا أنهم إذا أرادوا التقرب إلى الله تعالى فسبيله أن يصطبغوا بصبغة الله، أي عليهم أن يحاولوا محاكاة صفات الله وتقليدها. يقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ﴾(الأعراف:١٢). وهذه الآية توضح أن للإنسان خلقتين: خلقة بشرية، وخلقة روحانية، والخلقة البشرية مذكورة في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾.. أي جعلناكم كائنات ذات حياة، وأما الخلقة الروحانية فقال الله تعالى بصددها ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾.. أي أعطيناكم صورة روحانية تتميزون بها عن باقي المخلوقات. وإلى هذا المعنى نفسه قد أشير في التوراة كالآتي: "خلَق الله الإنسان على صورته" (التكوين ١: ٢٧). ولكن كلمات التوراة توهم وكأن الله تعالى شيء مادي، أما كلمات القرآن فتوضح بجلاء أن المراد من الصورة هنا صورة روحانية لا مادية، ذلك لأن الله تعالى قد سبق أن ذكر الخلق المادي، فليس المراد من قول الله بعد ذلك ﴿صوّرناكم﴾ إلا أننا زوّدناكم بقوًى وقدرات تستطيعون بها محاولة الاتصاف بصفات الله تعالى، بمعنى أننا قد خلقنا الإنسان خلقًا جسمانيًّا أولاً، فجعلنا له الأنف والأذن والأيدي والأرجل وغيرها من الأعضاء، ثم قمنا بتنمية عقله وتطوير قواه بحيث أصبح جديرًا بالاصطباغ بصبغة صفات الله تعالى وانعكاسها؛ ثم بعد ذلك قلنا للملائكة اسجدوا لهذا الإنسان. وبما أن القرآن الكريم يركّز بشدّة على أن السجود لا يجوز لغير الله تعالى، فالمراد من السجود هنا سجود مجازي وهو الطاعة والانقياد. غير أن السجود المجازي أيضا إنما يتم أمام إله مجازي، ولذلك قال الله تعالى ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾.. أي أننا زودناكم بصفات فيها شبهٌ بصفات الله تعالى أولاً، وعندما صرتم قابلين للاتصاف بها والتحلي بها، قلنا للملائكة: لا شك أن السجود الحقيقي لا يجوز لغيري بحال من الأحوال، إلا أننا نأمركم بسجود مجازي، وهذا السجود المجازي يتطلب إلهًا مجازيًا، وهذا الإله المجازي هو الإنسان الذي فيه انعكاس لصفات الله تعالى. ولكن لو فُسّر قوله تعالى ﴿اسجدوا لآدم﴾ أن يسجد الملائكة لكل إنسان، لم يستقم المعنى، إذ

يكون المراد عندها أنه إذا سرق إنسان فعليكم مساعدته في السرقة، وإذا سلب أحدٌ غيره فعليكم أيضا أن تسلبوه، وإذا أراد أحدٌ قتل الآخرين فعليكم أيضا بقتلهم. وهذا المعنى خطأ بالبداهة. إنما يصحّ السجود لآدم الذي لا يمكن أن يسرق أو يكذب أو يخدع أو يظلم أو يقع في أي سيئة أخرى أبدا. وبما أنه يكون متصفا بصفات أفضل من صفات الملائكة فلا بأس مطلقًا في طاعتهم لآدم كهذا. وأنّى للملائكة أن لا يتبعوا مَن يكون مظهرًا لصفات الله تعالى؟! كلا بل إن من واجبهم أن يكونوا معه.

إذًا، فإن الله تعالى قد زوّد كل إنسان بملَكة يستطيع بها أن يكون مظهرًا لله تعالى، وإذا تحلّى أحد بصفات الله تعالى أمَر ملائكته بنصرته. وإلى هذا المعنى يشير حديث الرسول ﷺ أن الله تعالى إذا أراد أن يجعل عبدًا من عباده مقبولا في الدنيا أمَر ملائكته، فيعملون على نشر قبوله في الدنيا. (كنز العمال: كتاب الفراسة، البخاري: كتاب بدء الخَلق، باب ذكر الملائكة).

إذًا، فكل إنسان مزوَّد بملَكةِ التحلّي بصفات الله تعالى، ولو تحلى بها فإن الله تعالى يأمر ملائكته باتّباعه، لكونه قد أصبح كائنا ينعكس فيه الله تعالى، ويتم له الارتباط به ﷻ والاتصال به. ذلك لأننا نرى في الدنيا أيضا أن الشيء لا يتصل بشيء إلا إذا كان بينهما نوع من المشابهة. فمثلا بوسعنا أن نوصّل الحديد أو الجلد بالخشب لأن بينهما مشابهة، وهي أن كليهما صلب، ولكن لا نستطيع أن نجعل الماء أو الهواء يتصل بالخشب، إذ لا مشابهة بينها. ونفس الحال في العالم الروحاني أيضًا، فلا بد أن يوجد بين شيئين روحانيين اشتراك حتى يتم بينهما الاتصال. فلكي يتصل العبد بالله تعالى لا بد أن يوجد بينه وبين ربه نوع من المشابهة، وما هي إلا أن يتخلّق بأخلاقه تعالى. وعندما يتحلى العبد بصفات كصفاته تعالى يصطبغ بصبغة الألوهية، فيصبح الاتصال بينه وبين ربه ممكنا كما أن اتصال الخشب بالحديد ممكن. ورغم أن العبد لا يمكن أن يصبح إلهًا إلا أنه يصبح كمرآة تعكس وجه الله تعالى، شأنه شأن الخشب الذي لا يمكن أن يصبح حديدا، أو الحديدِ الذي لا يمكن أن يصبح خشبا، إلا أنهما مهيَّآن للاتصال فيما بينهما.

إذًا، من أجل الارتباط والوصال بالله والتقرب إليه لا بد للإنسان أن يتخلّق بأخلاق الله تعالى وأن يمتلئ قلبه بحبه تعالى، فإذا فعل ذلك جذبتْه محبة الله تعالى إليه كما يجذب المغناطيس قطعة الحديد.

إن هذا التعليم الذي عرضه الإسلام على العالم يبلغ من الأهمية بحيث لو بذل كل إنسان جهده بحسبه وأصبح مظهرًا لصفات الله تعالى لتغيرت خريطة العالم يقينا ولتبوّأ كل إنسان مقاما عاليا من الصلاح، بحيث يصبح من المحال لأحد أن يجعل قدمه تزل بعد ثبوتها على هذا المقام العالي.

وقد عُلّمت هذه الحقيقة في إحدى الرؤى حيث رأيتني ألقي خطابا وفي يدي مرآة، وأقول للناس أثناء الخطاب إن الله تعالى قد جعل قلب الإنسان مثل المرآة. وكما أن الإنسان يرى جماله في المرآة كذلك يريد الله تعالى أن يرى جماله في مرآة قلب الإنسان؛ فإذا عكس قلبه صفاته تعالى بشكل جيد، اعتبره الله تعالى متاعًا غاليًا، ولكن لو كان قلبه وسخًا ورديئًا و لم يعكس وجهه تعالى أو عكَسه بشكل خاطئ، لم يقبل الله قلبه ورماه بعيدا. ولما قلتُ هذه الكلمات رميتُ المرآة التي كانت بيدي على الأرض قائلاً: هكذا يرمي الله تعالى مثل هذا القلب الوسخ، فينكسر ويتناثر. (جريدة "الفضل" قاديان ١٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩١٤م ص ١٢)

إن هذه الرؤيا تبيّن نفس الأمر؛ أي أن الله تعالى قد خلق الإنسان ليعكس نوره ويكون مظهرًا لصفاته تعالى. فمن الضروري أن يكون كل إنسان، في نطاق وسعه، ربًّا ورحمانًا ورحيمًا ومالك يوم الدين وجبّارًا وستّارًا وغفّارًا وعليمًا وشكورًا وحميدًا ومجيدًا وودودًا. يجب أن يعكس كل صفات الله تعالى التي من المشهور عنها أنها تسع وتسعون (البخاري: كتاب الشروط، باب ما يجوز من الأشراط)، ولكنها في الحقيقة أكثر من ذلك بكثير. ولو فعل الإنسان ذلك لحقق الغاية من خلقه، أما إذا لم تنعكس صفات الله تعالى في مرآة قلبه فهو كإناء مكسور لا فائدة منه، أو كمرآة وسخة قد أكلها الصدأ فلا تعكس وجه الله تعالى. وكما أن الإنسان لا يحتفظ بالمرآة الوسخة المتآكلة بالصدأ، كذلك لا يحتفظ الله ﷻ بمثل

هذه المرآة الإنسانية التي كان من المفروض أن تعكس وجه الله تعالى، ولكنها بسبب وسخها ودرنها لا تعكس الجمال الإلهي.

مجمل القول إن الإسلام يركز على بيان صفات الله تعالى بشكل خاص، وينبّه الناس إلى أن حسنهم كلّه متوقف على محاولة اصطباغهم بصبغة صفات الله تعالى. عليهم أن يتذكروا جيدا أنه كلما تمكن المرء من الاتصاف بصفات الله تعالى تحلى بالأخلاق الفاضلة أكثر، وبالتالي حظي بقرب الله تعالى أكثر. وهذا يعني أن الإسلام يقدم تعريف الحسنة والسيئة من منظور جديد، ويبني الأخلاق السامية على أساس انعكاس الصفات الإلهية. إن هذه النظرية الإسلامية مهمّة للغاية، والحقّ أننا لو تدبرناها لوجدنا أنها قد أحدثت في عالم الأديان ثورة، وغيّرت تعريف الحسنة والسيئة كلية. فإننا نرى أن الذين هم ليسوا معتادين على التفكير العميق إنما يؤدون العمل الذي يعجبهم، أما ما لم يعجبهم فلا يؤدونه. والحسنة عندهم هو ما يحبونه، والسيئة ما يكرهونه. والحق أن هذا التعريف للسيئة والحسنة باطل تماما، لأن هناك آلافًا من الناس الذين يرغبون في عمل شيء اليوم، ولكنهم لا يرغبون في القيام به غدا، ومن الناس من لا يحب اليوم شيئا يجب أن يحبّه، ولكنه يرغب فيه غدًا، ولو سأله أحد: لماذا رغبت في ذلك الشيء من قبل ولا ترغب فيه الآن، ولماذا كرهت هذا الشيء من قبل وترغب فيه الآن؟ فربما يقول إن ظروفي كانت مختلفة من قبل، أو يقول لقد كنتُ مخطئا حين لم أرغب فيه من قبل، وقد أصبتُ حينما رغبت فيه الآن؛ ولكن الحق أن قوله هذا أيضا ليس أمرا قطعيًا، إذ من الممكن تماما أن يكره غدًا ما بدأ يحبه اليوم.

ثم لو كانت الحسنة ما يحبّ المرء فعله، فهل على المرء أن يسكت إذا قتل أحد والده بحجة أن القاتل يحب ذلك؟ وهل على السيد أن يسكت على تقاعس خادمه في تنفيذ أوامره لو قال له الخادم إن هذا العمل لا يعجبني؟ إذا كان حبُّ المرء لفعلٍ ما هو الحسنة، فليس من العدل أن يرفع أحد القضية ضد قاتل أبيه، كما أنه من الظلم أن يعاقب السيد خادمه عند التقاعس في تنفيذ الأمر، ذلك لأن القاتل أحب قتل القتيل، ولأن الخادم يحب التقاعس عن القيام بما يأمره سيده. ولكن ما نراه

على صعيد الواقع يبطل هذه النظرية، لأن الشخص الذي يقول إن الحسنة ما يحبّه المرء وإن السيئة ما يكرهه، يثور غضبًا إذا ما قتل أحد أباه ويصرّ على أخذ الثأر منه، مع أنه كان من الواجب عليه أن يفرح بما فعله قاتل أبيه لأنه قد قام بعمل حسن بحسب النظرية التي يقول بها ابن القتيل عن الحسنة والسيئة. كما كان على السيد أن لا يعاقب الخادمَ عند تقاعسه عن العمل وقوله إني أحببتُ التقاعس، بل كان عليه أن يفرح لأن خادمه سائر في طريق الحسنة. ولكن هذا لا يحدث على أرض الواقع أبدًا، فثبت أن هذا التعريف للحسنة والسيئة ليس صائبًا على الإطلاق.

وهناك آخرون تقدموا خطوة أخرى بصدد تعريف الحسنة والسيئة، فزعموا أن الحسنة ما يحبه المجتمع والسيئة ما يكرهه المجتمع. ولكنا نقول مقابل هذا التعريف إن المجتمع الهندوسي لا يحب أكل لحم البقر لأنه إثم كبير عنده، بينما يحب المجتمع المسلم أكله لأنه جائز في دينه؛ وبالمثل نجد المجتمع السيخي يحبّ أكل لحم الحيوان الذي لا يُذبح وإنما يُقطع رأسه بضربة واحدة، ولكن المجتمع المسلم ينهى عن أكله لأنه حرام عنده؛ ثم إن المجتمع الأوروبي يحب شرب الخمر، ولكن المجتمع المسلم لا يحب شربها لأنها حرام؛ فبحسب رغبة أي المجتمعات نفصل في هذه الأمور؟ أنحكم بحسب رغبة المجتمع المسلم أم المجتمع السيخي أم المجتمع الهندوسي أم المجتمع الأوروبي؟ فلو حكمنا بحسب رغبة المجتمع الهندوسي الذي يعدّ أكل لحم البقر جريمة عظيمة، لقال المجتمع المسلم كلا، بل إن أكله جائز. ولو حكمنا بحسب رغبة المجتمع السيخي القائل بأكل لحم الحيوان المقطوع عنقه بضربة واحدة، لقال المسلم كلا، بل إن أكله حرام. ولو حكمنا بجواز شرب الخمر نزولاً عند رغبة المجتمع الأوروبي، لقال المسلم كلا، بل إن شربها حرام. إذًا، لن نجد مجتمعا واحدا ترضى بقيةُ المجتمعات برغباته، ولو فصلنا الأمر بحسب الرغبات ما رضي أحد عن الآخرين. هنالك آلاف القضايا التي يوجد حولها اختلاف كبير بين الناس فيما إذا كانت حسنةً أو سيئة. فثمّة عمل يعتبره هذا المجتمع حسنة كبيرة، بينما يعتبره المجتمع الآخر جريمة كبيرة، وهناك فعل يعتبره أحد المجتمعات ذنبا كبيرا بينما يعتبره مجتمع آخر عين الصواب. فمثلا يعتبر الأوروبيون شرب الخمر عملا حسنا، ولكن

المسلمين يعدّون شربها إثمًا كبيرًا. فهل نعتبر شرب الخمر حسنة كبيرة بحسب معيار الأوروبيين، أم نعتبره سيئة كبيرة بحسب معيار الإسلام؟ فإذا قدّم أوروبي لمسلم كأس الخمر ورفضها المسلم، فهل نعتبر تصرف المسلم عملا خلاف التحضّر والتهذيب بحسب معيار الأوروبيين، أم نعتبر تصرّفه حسنة بحسب معيار الإسلام؟ ما هو السبب الذي نقبل بحسبه قول المجتمع المسلم أو نرفض موقف المجتمع المسيحي؟ أو نقبل الموقف المسيحي ونرفض الموقف المسلم؟

ثم هناك قوم تقدّموا أكثر من ذلك وقالوا أن الحسنة ما يحبّه أغلبية الناس، وأن السيئة ما تكرهه أغلبيتهم. ولكن هذا التعريف أيضا ليس صحيحًا، إذ لا يمكننا أن نعتبر ما تراه الأكثرية معيارًا لمعرفة الحسنة أو السيئة إلا إذا تمسكت هذه الأكثرية بموقف واحد على الدوام، فإن ما نراه على صعيد الواقع هو أن أفكار الأكثرية تختلف من زمن إلى زمن ومن بلد إلى بلد ومن قوم إلى قوم؛ فكيف يمكن إذن أن يكون رأي أكثرية الناس معيارا لمعرفة الحسنة أو السيئة؟

ثم إننا لو اعتبرنا هذا التعريف صحيحا لكان معنى ذلك أن الأكثرية إذا قالت إن الله غير موجود، لكان إنكاره ﷻ هو الحسنة في ذلك العصر! وإذا قالت الأكثرية إن الله موجود لكان الإيمان به ﷻ هو الحسنة في ذلك الزمن، وكان إنكاره تعالى سيئة؛ وهذا يعني أن تعريف الحسنة والسيئة سيتغيّر وفق تغيُّر عقائد الأكثرية. فثبت أن هذا التعريف أيضا ليس تعريفا ثابتًا.

وهناك قوم يقولون أن الحسنة ما يجلب سرورا أكثر، وأن السيئة ما لا يجلب سرورا مثله في ظروف مماثلة. ولكن هذا التعريف أيضا ليس تعريفا صائبا، لأن هذا يعني أن أحدا إذا صار أكثر سعادة بالسطو على أموال الناس كان السلب والسطو هو أفضل حسنة بالنسبة له؛ ولكن لا أحد يقبل هذا الأمر.

ومن الناس من يقول إن الحسنة ما هو نافع لمعظم الناس. ولكنا لو قبلنا هذا التعريف لوجب علينا التسليم بأن فرنسا لو أغارت على بلجيكا لكان عملا حسنًا، ذلك لأن سكان فرنسا أكثر من بلجيكا. لا شك أن سكان بلجيكا الذين هم أقل عددا سيتضررون نتيجة هذا الهجوم، ولكن هجوم الفرنسيين على البلجيكيين

وسلبهم أموالهم سيعتبر حسنة، لأن الفرنسيين الذين سينتفعون من هذا الهجوم هم أكثر عددا. وهكذا فإن هذا التعريف سيجيز لكل أكثرية أن تستبيح أموال أي أقلية، ثم تقول إنه عمل حسن؛ وإذا سئلت: كيف يكون سلب أموال الناس عملا حسنا؟ أجابت: انظروا في الكتب فقد ورد فيها أن الحسنة ما كان عليه أكثر أهل الدنيا. وعلى النقيض لو هاجمت شعوب قليلة العدد أممًا أكثر عددا واستولت على أموالها، لعُدَّ تصرُّفها هذا سيئة، لأن فيه فائدة الأقلية وضرر الأكثرية.

وقد قال البعض أن الحسنة ما يكون نفعه واسع النطاق وطويل المدى. ولكن هذا التعريف أيضا يلزمنا القول أن الأمة التي تقوم بأعمال السطو والسلب لمئة سنة هي أقل حسنة من الأمة التي تقوم بهذه الأعمال لمئتي سنة.

ومن الناس من يقول أن الحسنة ما تنفع صاحبها أكثر، وأن السيئة ما تضر صاحبها. ولكن الكذب لو نفع صاحبه أكثر لعُدَّ حسنةً بالنسبة إليه فقط، ولكن لا أحد يقول بصحة ذلك.

وهناك قوم يقولون أن تعريف الحسنة والسيئة يجب أن يتم على أساس الفطرة، فالحسنة ما هو حسن عند الفطرة، والسيئة ما هو سيئ عند الفطرة. هذا التعريف مصيب إلى حد ما ولكنه ليس بصحيح تماما. لقد ذكرت في مناسبات عديدة أن الخليفة الأول للمسيح الموعود ﷺ كان يحكي أنه قال لسارق مرة أن السرقة عمل سيئ للغاية، وعليك أن تكسب المال الحلال بجهودك. فقال: أيها الشيخ، إننا نحن السارقين نبذل جهودا كبيرة ونواجه أخطارًا شتى في أثناء عملية السرقة، فأرى ألا بأس في السرقة بل هي عمل جائز تمامًا! فقال حضرته للسارق: لو وضعتَ الذهب المسروق عند صائغ وطلبته منه بعد بضعة أيام، فرفض طلبك وقال لم تعطني أي ذهب، فماذا ستقول عن هذا الصائغ؟ فقال السارق: هل يوجد في الدنيا رجل خبيث يأكل أموال الناس بهذه الطريقة؟ وهكذا نرى أن مما لا شك فيه أن فطرة الإنسان تخبره بما هو حسن وسيئ، ولكن بقدر محدود، لأنها تصبح في بعض الأحيان مشوّهة ممسوخة من جراء البيئة المحيطة بها.

والآن يبقى السؤال: ما هو تعريف الحسنة والسيئة إذًا؟ هل الحسنة ما يعتبرها الدين حسنة والسيئة ما يعتبرها سيئة؟ وإذا كان هذا الكلام صحيحا فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: أي الأديان حسناته حسنات وسيئاته سيئات حقًّا؟ والإجابة على هذا السؤال صعبة للغاية. فإن في الدنيا ديانات كثيرة، وهي تختلف اختلافًا كبيرًا فيما يتعلق بتعريف الحسنة والسيئة. فهناك عمل يعتبره أحد الأديان حسنة، بينما يعتبره دين آخر سيئة. إذًا فهذا التعريف أيضًا لا يمدّنا بعلم حقيقي بصدد الحسنة والسيئة.

ثم هناك سؤال آخر: إذا اعتُبر عمل ما إثمًا لا لحكمة، بل لمجرد أن الشرع ينهى عنه، فسوف يُعتبر حكم الشرع هذا لغوًا وعبثا، أما إذا اعتُبر هذا العمل سيئًا لكونه سيئًا فلا يصحّ القول بأن السيئة هي ما ينهى عنه الشرع، وإنما الصحيح هو أن الشرع ينهى عما هو سيئ؛ وفي هذه الحالة يجب أن نُرجع ذلك الأمر أو النهي إلى تلك الحكمة وليس إلى الشرع. إذًا، فلا يكفي أيضًا القول أن ما ينهى عنه الشرع هو السيئة وأن ما يأمر به الشرع هو الحسنة.

أما الإسلام فيقدم تعريفًا للحسنة والسيئة يخالف هذه النظريات كلها، وهو أن الحسنة تعني موافقة الإنسان مع صفات الله تعالى، وأن السيئة هي تصرُّفه المخالف لهذه الصفات. فيأمر الله تعالى المؤمنين بهذا الصدد في القرآن ﴿صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً﴾(البقرة: ١٣٩).. أي أن الله تعالى هو رب العالمين والرحمن الرحيم ومالك يوم الدين، فعليك أن تسعى لتكون مظهرا لربوبية الله للعالمين ولرحمانيته ورحيميته ومالكيته. كما أن الله تعالى ستّار وغفّار وقهّار وحميد ومجيد وشكور وودود، فعليك أن تسعى قدر الإمكان لتكون ستّارًا وغفّارًا وقهّارًا وحميدًا ومجيدًا وشكورًا وودودًا، ليتم بينك وبين الله تعالى نوع من المماثلة وتنعكس فيك صفاته، فتتحلى بالأخلاق الحميدة السامية.

فالحسنة الحقيقية عند الإسلام ما يتفق مع الحسن الأزلي، والإثم أو السيئة هو ما يتنافى مع صفات الله تعالى. وبما أن الإنسان مؤهَّل لأن يكون مَظهرًا لصفات الله تعالى، أو بتعبير آخر، أن الله تعالى هو الأصل والإنسان هو الصورة، ويكمُن جمال

الصورة في أن تكون مطابقة للأصل، ويكمن قبحها في أن تكون خلافا للأصل. إذًا، فكل عمل يجعل الإنسان أكثر موافقة ومشابهة بالله تعالى هو الحسنة، وكل عمل يجعل الإنسان على نقيض من صفات الله تعالى هو السيئة. وكأن التعريف الحقيقي للحسنة والسيئة عند الإسلام هو أن الحسنة اسمٌ لكل عمل أو فكر يؤدي إلى نوع من المشابهة بين الإنسان وبين الله تعالى الذي هو كامل ومنزه عن كل عيب، والسيئة اسمٌ لكل عمل أو فكر يتنافى مع مرضاة الله أو أفعاله ﷻ.

لا شك أن بعض الناس يمكن أن يقول لنا: أنا لا أؤمن بالله؛ وعندها سيكون من واجبنا أن نقدم له الأدلة والبراهين على وجود الله تعالى، ولكن بعد الإقرار بوجود الله تعالى ليس أمامنا سبيل لمعرفة الأخلاق الصحيحة إلا أن ندرك أن العمل الموافق لصفات الله تعالى هو الحسنة، وأن العمل المنافي لصفاته تعالى هو السيئة، لأنه تعالى هو وحده المنزه عن العيب والمتّصف بكل الصفات الحسنة السامية. وبعد تحديد هذا التعريف للسيئة والحسنة لن يصعب علينا معرفة الأخلاق الفاضلة والأخلاق السيئة، ذلك لأن الإنسان إذا وجد النموذج الحيّ لم يبق بعده بحاجة إلى صورة خيالية. وإننا نستطيع أن نُثبِت، ثبوت الشمس في كبد السماء، أن هناك ذاتًا متصفًا بكل الصفات الحسنة العليا يستطيع الإنسان إصلاح أفعاله إذا ما حاول الاتصاف بصفاته، وهذا الذات يملك الحسن والجمال لدرجة أن الإنسان إذا تأسى بأخلاقه أصبحت أفعاله أيضا جميلة. فإذا كان الله تعالى موجودًا – وهو موجود حتمًا – وإذا كان متصفا بجميع الصفات الحسنة، فكل من يقلّده في أفعاله تحلى بالأخلاق الفاضلة.

إذًا، فإنما الأخلاق الفاضلة هي تلك التي تتهيأ للإنسان بتقليد صفات الله تعالى وأفعاله، وإنما الأخلاق السيئة هي تلك التي تحول دون أن يكون الإنسان مظهرا لصفات الله تعالى، ذلك لأن الله تعالى هو المبدأ والمنبع، وليس الإنسان في الواقع إلا مرآة له ﷻ؛ فكلما حاول الإنسان التخلق بأخلاق الله تعالى تحلّى بالأخلاق الفاضلة السامية، وكلما فشل في التحلّي بصفاته تعالى، حُرم من التخلق بالأخلاق الفاضلة. ومن أجل هذه الحكمة قد ركّز الإسلام على صفات الله تعالى بشكل

خاص، وقد ذكرها مرارًا وتكرارًا لتكون دليلا على وجود الله تعالى من ناحية، ومن ناحية أخرى ليصبح الإنسان مظهرًا لتلك الصفات حتى يصبح كمرآة تعكس وجه الله تعالى، فلا يكون فيه إلا الحسن والجمال، ويتنزه من كل نقص وعيب.

لقد استهلّتْ سورة الشعراء أيضا بثلاث من صفات الله تعالى، وأُولى هذه الصفات هي صفة "اللطيف". وقد ورد في القاموس أن اللطيف هو: "البَرُّ بعباده، والمحسنُ إلى خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق ولطف... أو العالِمُ بخفايا الأمور ودقائقها" (أقرب الموارد).

وإذا أمعنّا النظر في نظام الكون وجدنا هذين المعنيين يتحققان بالتمام والكمال، و لم نجد بدًّا من الاعتراف بأن الله تعالى لطيف بالفعل. فقد منّ الله تعالى على خلقه بصنوف النعم لفائدتهم ولاستمرار حياتهم، وهيأ لبقائهم من الأسباب والنعم بحيث إن المرء لو ظل يشكر الله تعالى على هذه النِعم طول حياته لم يستطع أن يؤدي حق شكرها. فمثلا قد خلق الله تعالى من عظيم إحسانه الشمسَ والقمر والنجوم على بعد آلاف الأميال في السماء، وسخرها في خدمة العباد ليل نهار. وخلق ﷻ الأرض التي هي الأخرى لا تزال تخدمهم بدون انقطاع. يلقي المرء في الأرض بضعة كيلوغرامات من البذر ويرجع إلى بيته، وبعد مدة قليلة يرجع إلى بيته بعشرات الأطنان من الغلال عوضًا عن هذه البذور القليلة. وينام المرء في بيته في راحة، ولكن الأرض تظل تخدمه بدون انقطاع، فتنبت له الغلال والخضار، وتخرج له أنواع الثمار والأزهار، وعندما يهبّ من نومه ويأتي إلى الحقل يأخذ منه الخضار والثمار جاهزة. ثم انظر إلى جسم الإنسان لتعلم ما وهبه الله من النعم. إن أذنه عضو صغير، ولكنه نعمة ربانية عظيمة. إن موجات الهواء التي توصل الأصوات إلى آذانه هي الأخرى من خلق الله تعالى. ثم إن أوتار الحلق التي تُحدث الصوت أيضا من عطاء الله تعالى. وعندما يتغنى المطرب جميل الصوت يقول الناس ما أجمل صوته! مع أنه إنما يتغنى بمساعدة هذه الأوتار التي هي هبة من الله تعالى. وعندما يرى الناس شخصا قوي الذاكرة يقولون: ما أقوى ذاكرته، مع أن الدماغ الذي فيه الذاكرة من صنع الله وعطائه. ثم إن خلايا المخ أيضا من صنع الله تعالى. وإن المصلي حين يصلي

إنما يردد كلمات الصلاة بلسان هو أيضا من صنع الله، وإن المكان الذي يحفظ فيه المصلي هذه الكلمات.. أي الدماغ.. أيضا من صنع الله تعالى. إنه يركع ويسجد ويقوم في صلاته، وكل القوى والأعضاء التي يستعملها في هذه الحركات مخلوقة بيد الله تعالى لا بيد المصلي. كذلك حين يؤدي المرء الزكاة فإنما يؤديها مما أعطاه الله من مال، كما أن جميع المواهب والكفاءات التي كسب بها هذا المال أيضا هبة من عند الله، وإن اليد التي أدى بها الزكاة أيضا عطاء من الله تعالى. وحين يصوم الإنسان فلا يقوم من عنده بشيء في الواقع، إذ لو لم يمنحه الله تعالى القدرة على تحمّل الجوع لاثنتي عشرة أو خمس عشرة ساعة لما صام أبدًا، فثبت أنه إنما يصوم بفضل ما أعطاه الله تعالى من قدرة، وليس بفضل أية قوة ذاتية. وإن الحداد البارع في مهنته أيضًا إنما يستعين بالأشياء التي هي عطاء من الله تعالى. لقد خلق الله له مسبقا الحديد والفحم، والنارَ التي يسخن بها الحديد، وأيضًا الأعصابَ التي يعمل بها؛ فكل الأشياء التي يستخدمها في مهنته إنما هي عطايا من الله تعالى، وليس من الحدّاد إلا إرادته. ولكن رغم كل هذه النعم العظيمة يغمض المرء عينيه عنها أحيانًا، ويصبح ناكرًا للجميل جدا، فلا يرى أي نعمة منه تعالى، ولا يبصر أي فضل منه تعالى، ولا يتولد في قلبه أية مشاعر حب لله تعالى برؤية أي نوع من الرحمة الإلهية. لقد رأينا الأثرياء الكبار الذين يسافرون في سياراتهم الفخمة وتكون موائدهم مليئة بصنوف الأطعمة، ولكنهم عندما يجلسون عليها للأكل يقولون هذا الطعام ليس بجيد، وذاك الطبق ليس بلذيذ. وعلى النقيض ترى الإنسان الفقير يأكل كسرة الخبز الجاف بمتعة كبيرة ويجدها ألذّ من نعم الدنيا كلها. أتذكر جيدا أنه عندما كان سنّي حوالي ثلاث سنوات أُصبتُ بمرض في عينيّ، فمنعني الأطباء من أكل الخبز في هذه الحالة. وفي صبيحة أحد الأيام شعرت بألم شديد في عينيّ – وذلك لأن العين المريضة تظل مغمضة طوال الليل فتمتلئ بالماء فيبكي الطفل لشدة الألم في الصباح– فبدأت أبكي، فاحتضنتني خادمة في البيت وأخذت تداعبني، وكانت في يدها كسرة خبز بائت، وكانت تأكله بمتعة كبيرة وتداعبني أيضا. ولم أتمتع في حياتي كلها برائحة أي طعام كما تمتعت برائحة كسرة ذلك الخبز البائت. والسبب أن

هذه الخادمة كانت مطمئنة البال، فكانت تجد في هذه الكسرة البائتة متعة ولذة لدرجة أن لذتها سرت إلى مشاعري أيضا. وبرغم أنها كانت تأكل هذه الكسرة بدون أي طبيخ يبلّلها، غير أنها كانت تأكلها بنهم متلذذةً بها ومحدثةً معها الأصوات، وكانت هذه الأصوات تؤكد لي أن هذه الكسرة هي ألذّ الأطعمة عندها. وبعد حوالي أربع سنوات من هذا الحادث سألتني أمّي مرة: هل تحب أكل شيء معين؟ فقلت أريد أن آكل الخبز البائت. وإنما قلت هذا نتيجة التأثير العميق الذي تركه ذلك الحادث في قلبي.

إذًا، فلو كانت عند الإنسان القناعة والرضا، ولو نظر إلى كل شيء بمشاعر الشكر لله تعالى، لوجد أبسط شيء كأكبر نعمة من نعم الدنيا.

كان الخليفة الأول ﷺ يحكي لنا أنه قال مرة لعجوز صالحة عابدة: يا أمّاه مُرِيني بخدمة أقوم بها لك، فإني أريد أن أحقق لك رغبة ما لأُثاب عليها. فقالت له: لقد أعطاني الله كل شيء، ولست بحاجة إلى أي شيء آخر. فقال لها بإصرار: إنني أود من الصميم أن أقوم بخدمة لك. قالت: نور الدين! ماذا أريد أكثر مما أعطاني الله تعالى؟ يحتاج المرء إلى خبز ولحاف، ويبعث الله تعالى إلي برغيفين فآكل أحدهما ويأكل ابني الآخر، وعندنا لحاف واحد وكلانا ننام فيه؛ عندما أشعر بالتعب خلال النوم وأريد أن أغيّر جنبي، أقول لابني أن يغيّر جنبه، فأنام على جنب آخر؛ وعندما يتعب هو، يخبرني فنغيّر جنبنا؛ وكلانا نعيش في راحة ومتعة، ولسنا بحاجة إلى أي شيء بعد ذلك. فألحّ عليها أكثر فقالت: إذا كنت مصرًّا لهذه الدرجة، فأَحضِرْ لي مصحفا بخط كبير لأن بصري قد ضعف، ولا أقدر على قراءة الحروف الصغيرة، فلو وجدت مصحفا بحروف كبيرة سهلتْ عليّ تلاوة القرآن الكريم.

فانظر إلى البون الشاسع بين هذه العجوز والناس الآخرين. فمن يكسب منهم أربع مئة روبية فهو في قلق، ومن يكسب منهم خمس مئة فهو أيضًا في اضطراب، ومن يكسب منهم ألف روبية فهو الآخر في كرب؛ مع أن المال ليس الهدف، إنما الراحة والسكينة هو الهدف، وإذا لم يتمتع الإنسان بالسكينة، فما الفائدة من المال؟ ولكن الإنسان لو ولّد في قلبه عواطف الشكر لبدت له كل ذرة من الكون محسنةً

إليه، وحيث إن كل ذرة من الكون خاضعة لمنن الله وإحسانه سيجد المرء أن الله هو المحسن الحقيقي إليه. كان حضرة ميرزا مظهر جان جانان – رحمه الله – من كبار أولياء الله تعالى في دهلي، وقد ورد في الكتب عنه أنه كان يحبّ الحلوى الشهيرة عندنا باسم "لدو". وهذه الحلوى تصنع في دهلي من "القشطة" فتكون لذيذة جدًّا. وذات مرة كان حضرته في مجلسه إذ جاءه شخص بحبّتين من هذه الحلوى هدية له. وكان تلميذه غلام علي شاه عنده في ذلك الوقت، فأعطاه الحبّتين. وبما أن حبّات حلوى "لدو" المصنوعة من القشطة تكون صغيرة بحجم الجوز أو أصغر قليلا، فوضع التلميذ الحبّتين في فمه مرة واحدة وأكلهما. فقال له حضرته: يبدو أنك لا تعرف كيف تؤكل هذه الحلوى! فسكت التلميذ في تلك المناسبة، ولكنه بعد بضعة أيام قال لحضرته: سيدي، علِّمْني كيف تؤكل حلوى "لدو" فقال له: ذكِّرْني إذا أتتنا هذه الحلوى في يوم آخر فأعلّمك كيف تؤكل. وبعد بضعة أيام جاء شخص بالحلوى، فذكّر التلميذ أستاذه بوعده وقال: ها قد جاءت الحلوى، فعلِّمني كيف آكلها. فأخرج حضرته منديله ووضع عليه الحلوى، وأخذ قطعة صغيرة من حبة ووضعها في فمه، وقال: سبحان الله، سبحان الله، ثم قال مخاطبًا نفسه: ما أكثرَ مِننَ الله عليك، يا مظهر جان جانان! ثم أعاد قوله: سبحان الله، سبحان الله، وتوجّه إلى تلميذه وقال: غلام علي، هل تعرف مِمَّ تُصنع حلوى "لدو"؟ فأخذ يعدّد الأشياء التي صُنعت بها كالقشطة والسكر والدقيق. فأخذ الأستاذ يسبّح الله تعالى ثانية وقال: هل تعرف كيف صُنع السكر الذي وُضع في الحلوى؟ قال التلميذ: لقد زرع الفلاح قصب السكر، ثم عصره في المِعصرة، ومن ذلك العصير صُنع السكر. فقال الأستاذ: هذا الفلاح الذي زرع قصب السكر كان يستيقظ في الصباح الباكر، ويترك أهله وأولاده ليذهب إلى الحقل، ويحرث الأرض ويسقي الزرع، ولم يزل يتكبّد العناء ويجتهد بمشقة، كل ذلك فقط لكي تُصنع حبة "لدو" لمظهر جان جانان؟ ثم أخذ الأستاذ يسبّح الله ويحمده، واستأنف كلامه بعد برهة وقال: لم يزل هذا الفلاح يعمل في زرعه ويسقيه ستة أشهر، ثم عصر قصب السكر بمشقّة كبيرة، ثم أشعل النار ودخل جحيم الدنيا هذه مرات

ومرات لغليان العصير ليتحوّل إلى السكر، وكل ذلك فقط لكي يأكل مظهر جان جانان حبّة من "لدو". ولم يزل حضرته يبين لتلميذه بالتفصيل كيف صُنعت القشطة والدقيق، وكيف ظل آلاف الناس يعملون على صنع هذه الأشياء ليلا ونهارا غير مبالين براحتهم وصحتهم، ولم يسخرهم الله تعالى في هذه الأعمال إلا ليأكل مظهر جان جانان حبة "لدو". وعندها طرأت على حضرته حالة من الوجد فأخذ يسبّح الله ويحمده حتى حانت صلاة العصر، فخرج من مجلسه للصلاة، وظلت الحلوى كما هي.

وقد رأينا أنه كان من عادة سيدنا المسيح الموعود عليه السلام أنه إذا أراد أن يتناول الطعام كسر لقمة صغيرة من الرغيف ووضعها في فمه ثم لم يزل يمضغها لوقت طويل. لم يكن حضرته يأخذ لقمة كبيرة أبدًا، بل كان يأخذ لقمة صغيرة دائما، وأثناء مضغها كان يأخذ في يده لقمة أخرى يقلّبها بين أصابعه ويكسرها كسرات صغيرة عديدة وهو يردد: سبحان الله، سبحان الله. ثم بعد ذلك يأخذ من تلك الكسرات كسرة ويبللها بالطبيخ ويتناولها، وكانت الكسرات الأخرى تبقى على الخوان كما هي. وقد كان بعض الذين يرون هذا المشهد يظنون خطأً أنه عليه السلام يفرّق بذلك بين الحلال والحرام من الكسرات! وبما أن كسرات كثيرة تجتمع على خوانه فكان الناس يتقاسمونها بينهم تبرّكًا إذا فرغ من الطعام.

فالواقع أن رحمات الله وبركاته كثيرة وواسعة جدًّا بحيث لو فكّر الإنسان لتبيّن له أن كل خطوة يخطوها، وكل لحظة يقضيها، وكل ساعة تأتي عليه من حياته، تكون مصحوبة بأفضال الله تعالى ونعمه التي لا تعد ولا تحصى. ولو أنه أمعن التفكير أكثر لتبيّن له أن كل الكون مسخر لخدمته، وأنه ينهل من فيوض الله تعالى ليل نهار بدون انقطاع. فكلما مدّ يده، أو لمح ببصره، أو رفع صوته، أو بلع ريقه، فإنما يفعل ذلك نتيجة فضل الله ومنّته، وإلا فمتى كانت عنده القدرة على ذلك؟ فلو كان أحد يعاني من سوء الهضم، وأراد الأطباء أن يعملوا على إصلاح القوة الهاضمة عنده بإعطائه جرعات من "حامض كلور الماء" لمات في بضعة أيام، ولكن الله تعالى قد ركّب في الإنسان آلة بيولوجية تُحدث في كل غذاء يدخل في

معدته تغييرات كيماوية شتى لتنقله إلى الدم، فيجري الدم بهذا الغذاء إلى القلب فورا، فيمرَّر عبر الرئة لتنقيته، فيصل هذا الدم الصافي إلى الجانب الأيسر من القلب ويخرج منه عبر شريان كبير ينقسم بعد ذلك إلى قسمين: أحدهما يأخذ الدم إلى الرأس والآخر يأخذه إلى ما أسفل القلب؛ وهكذا يأخذ كل عضو من أعضاء الإنسان نصيبه من هذا الغذاء بحسب حاجته. فتأخذ الأجزاء العليا من الدماغ – وهي مركز العقل والشعور – نصيبها من هذا الغذاء، كما أن المراكز الدماغية التي تحرّك شتى أعضاء الجسد تأخذ منه نصيبها، كما تأخذ العين والأنف والأذن واللسان وغيرها من الأعضاء نصيبها من هذا الغذاء. فهناك نظام رائع عظيم خلقه الله تعالى داخل الإنسان لاستمرار حياته. عندما يشاهد الناس المصانع يستغربون، فمثلاً إذا شاهدوا الطاحونة يتحيرون قائلين: كيف تطحن هذه الآلة القمح؟ ولكنهم لا يشعرون بأن الله تعالى قد ركّب في الجسم الإنساني نفسه مصنعًا أعظم من جميع هذه المصانع. فالمصنع المركب في الإنسان يطحن ويصفّي ويزوّد الجسم بالطاقة والقوة أيضا. فكما أن بعض الطواحين الآلية التي صنعها الإنسان تُنتج السميد الخشن منفصلاً عن السميد الناعم، كذلك فإن المصنع الذي ركبّه الله تعالى في جسم الإنسان تُنتج بعض آلاته الدمَ الصالح، وبعضها تقوّي العقل، وبعضها تقوّي السمع، وبعضها تقوّي البصر، وبعضها تقوّي النطق. فهناك نظام هائل يعمل داخل الإنسان ليل نهار بدون توقف وانقطاع، فينتج عشرات المنتجات التي بعضها تقوّي حاسة اللمس، وبعضها تنمّي حاسة الشمّ، وبعضها تقوّي حاسة الأعصاب. وهنالك فروع وأقسام في دماغ الإنسان لا توجد مثلها في المؤسسات الحكومية أيضا. ومع ذلك لا يشعر الإنسان بما أنعم الله عليه من المنن، بل يمر بهذه الأشياء كالعميان، ويظل قلبه خاليا من محبة الله تعالى. أما رسول الله ﷺ فكان إذا بدأ الطعام قال: بسم الله، وإذا فرغ من الطعام قال: الحمد لله، وإذا لبس شيئًا حمد الله تعالى وأثنى عليه، مع أنه كان يلبس لباسا بسيطا جدا. إن الناس يلبسون في هذه الأيام أنواع الملابس المريحة من أجود الأقمشة، ومع ذلك لا تتولد في قلوبهم عواطف الشكر لله تعالى. إنهم يدّعون بأنهم يؤمنون بالله ورسوله، ولكنهم لا

يفكرون أبدا أن أضعف مسلم بينهم اليوم أيضًا يلبس ما هو أفضل وأكثر راحة بآلاف المرات من ملابس رسول الله ﷺ الذي قال الله تعالى له: "لولاك لما خلقتُ الأفلاكَ" (تفسير الألوسي، سورة النبأ، الآية: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾)، ومع ذلك لا تمتلئ قلوبنا بمشاعر الحمد والشكر لله تعالى كما كان قلب محمد ﷺ يمتلئ بعواطف الشكر العميق وهو يلبس أبسط الملابس، ولا تتولد في قلوبنا الحسرة أن يا ليت نبينا ﷺ تمتَّعَ بهذه النعم إذ كان أحق وأولى بها.

ذات مرة جاء إلى حضرة الخليفة الأول ﷺ شخص وقال: إنني من السادات الأشراف*، وأريد تزويج ابنتي، فأرجوك أن تساعدني. وكان الخليفة الأول ﷺ كريمًا جوّادًا، ولكن المرء يميل أحيانًا إلى جهة معينة لهدف معين، فقال للسائل: إنني مستعد لأن أعطيك لزواج ابنتك كل ما أعطاه الرسول ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها. فقال الرجل على التو: هل تريد أن تجدع أنفي أمام الناس؟ فقال حضرته: هل أنفُك أعزُّ من أنف الرسول ﷺ؟ إنما يحترمك الناس لأنك من السادات، فإذا كان هذا القدر من جهاز العروس لم يسبب أي إهانة للرسول ﷺ فكيف يسبب لك الإهانة؟

فالحق أن أدنى المسلمين درجة اليوم أيضا يتمتع من النعم المادية بما لم يتمتع به الرسول ﷺ، ومع ذلك يخلو قلب هذا المسلم من مشاعر حبّ الله تمامًا. إنه يعلم أن الله تعالى قد أنعم عليه بنعم الدنيا أكثر من الرسول ﷺ بآلاف المرات، ومع ذلك لا يشكر ربه ﷻ. بينما كان قلب الرسول ﷺ عامرًا على الدوام بمشاعر الشكر لله تعالى. عندما ينزل المطر من السماء يمرّ به الفلاح غافلا، مع أن هذا المطر قد جاء لينبت زرعه. إنه يدخر هذه المياه دون أن يفكر من أين جاءت. إن القرى والمدن التي ليس فيها آبار يخزّن أهلها مياه الأمطار في الغُدر والسدود سدًّا لحاجاتهم على طول السنة، وإن هؤلاء عندما يدّخرون هذا الماء لأنفسهم ولمواشيهم لا يتولّد في قلوبهم أي إحساس بأن ربّهم قد منّ عليهم منّة عظيمة. إنهم لا يفكرون أن الله هو

* أي كان من نسل الرسول ﷺ. (المترجم)

الذي قد حوّل مياه البحار بخارًا بواسطة أشعة الشمس، ثم أتى به بواسطة الرياح وأمطره على بلادهم. ولكن لم يكن عند محمد ﷺ غُدران ولا سدود ولا زروع ولا مواشي، ومع ذلك كان من عادته ﷺ أنه كلما جاء المطر خرج إلى فناء بيته وأخرج لسانه وتلقى به قطرات المطر وقال: هذه نعمة جديدة من ربي.●

ما أروعَ وما أجملَ هذا الأسلوبَ للحبّ والشكر! إن الناس يتناولون ألذّ الأطعمة وأحلاها، ومع ذلك لا يجدون في قلوبهم أي حماس لمحبة الله ولا يشكرونه على نعمه، ولكن الرسول ﷺ كان يحب الله تعالى حبًّا يجعله يخرج لسانه ليتلقى به أول قطرات المطر شكرًا لربّه على هذه النعمة الجديدة. ومن أجل ذلك قد نبّهنا الله تعالى في القرآن الكريم إلى الشكر على نعمه وذكر مننه دائما. إذا عدّ الإنسان كل شيء نعمةً من ربّه وقدر نعمه تعالى، نال سلّمًا يوصله إلى ربّه، فلا يستطيع الشيطان أن يعيق طريقه، كما لا تستطيع نفسه أن تسقطه. فلا يزال يصعد في هذا السلّم ليصل إلى ربه رأسًا، ذلك لأنه كلما رأى منن ربّه امتلأ قلبه شكرا له سبحانه وتعالى، وهذا الشكر هو الذي يرفعه باستمرار ويحفظه من السقوط للأبد.

والمعنى الثاني لكلمة "اللطيف" هو "العالم بخفايا الأمور ودقائقها". وقد أشار الله تعالى بهذا المعنى إلى أن بصر الإنسان، برغم كل ما يملكه من علوم ومخترعات، محدود بظاهر الأشياء فحسب، وأن الإنسان يجهل غيب الله العظيمَ الذي يعمل وراء هذه الأمور وما فيها من دقائق الحكم الخفية، ولا تنكشف عليه غوامض الكون وأسراره إلا إذا أراد الله تعالى أن يُطلعه على أسراره ويزيل عن عينه حجب الخفاء نتيجة صفته "اللطيف". وقد أشار الله تعالى إلى هذا الأمر نفسه حين أمر رسوله ﷺ أن يقول للناس ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيرِ وَمَا مَسَّنِيَ

● نصّ الحديث كالآتي:
عن ثَابت عن أَنَس قال: "أصابَنا وَنَحْنُ مَعَ رَسُول الله ﷺ مَطَرٌ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ، فَحَسَرَ ثَوْبَهُ عَنْهُ حَتَّى أَصَابَهُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله لِمَ صَنَعْتَ هذَا؟ قالَ: لأَنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ". (أبو داود: كتاب الأدب: باب المطر) (المترجم)

السُّوءُ﴾(الأعراف:١٨٩). والحق أن التدبر العميق يكشف لنا أن الله تعالى قد جعل في استئثاره بالغيب نوعين من البركات للإنسان؛ البركة الأولى ينالها الإنسان ببقاء بعض الأمور وراء حجاب الغيب، والبركة الثانية ينالها الإنسان حين يكشف الله تعالى له الغيب. والبركة التي ينالها الإنسان نتيجة بقاء الأشياء وراء حجاب الغيب متجلّية من حيث إن حياة الإنسان كلها تتوقف على السعي والاجتهاد، وليس أساس السعي والاجتهاد إلا منوطًا بالغيب، إذ لولا حجاب الغيب لما كان هناك سعي ولا عمل مطلقا. فمثلاً يوصل الآباء أبناءهم إلى المدرسة، ولو كان الأولاد أذكياء مجتهدين أدركوا أنهم سينالون مكانة مرموقة في الدنيا إذا نالوا التعليم العالي، ولكن بعض الطلاب يمرض أحيانًا قبل موعد الامتحان بقليل أو يموت نتيجة حادث، فلولا أن الله تعالى قد استأثر بعلم الغيب، ولولا أن هذا الطالب لا يعلم أنه سيموت إذا بلغ الخامسة عشرة من عمره، لأصابه الحزن الشديد منذ البداية، ولأخذ والداه في البكاء والعويل، ولضيّع ابنه عمره كلية. ولكن الطالب يظل يجتهد بسبب حجاب الغيب، وبرغم أنه يموت بعد ذلك في تلك السن المبكرة، إلا أنه يترك وراءه نبراسًا يضيء طريق الطلاب الآخرين ويساعد على الرقي، شأن الشهاب الثاقب الذي يتساقط ولكنه يضيء الطريق لكثير من المسافرين الضالين ويجنبهم السقوط في الحفر؛ ذلك لأنه لولا أسوة هذا الطالب المجتهد لما اجتهد كثير من الطلاب في دراستهم. إنهم لا يجتهدون إلا لأنهم يشاهدون اجتهاده وذكاءه، فيرغبون في الدراسة ويرتقون.

وكذلك يعيش الإنسان بين أصدقائه وأقاربه، مع أن بعضًا منهم إنما يصادقه لأهداف ومآرب، وبعضهم ينسج ضده أنواع المكائد الخطيرة؛ أو يظهر له بعض أقاربه الحب الزائف، بينما يتربص به الدوائر. ولولا حجاب الغيب بينهم، ولولا أنه لا يعلم ما يكنّ له بعضهم من العداء وما يتربص له من الدوائر، لقامت القيامة في الدنيا، ولوجدنا أهل كل بيت في حرب وقتال، ولتصدى بعضهم لبعض قائلا: إنك تحمل ضدي أفكارًا سيئة، وتنسج ضدي مؤامرات، ولوجدنا المرأة تسخط على

زوجها، والزوج يغضب على زوجته، ولغاب الأمن والسلام من العالم. فثبت أن حجاب الغيب الذي جعله الله تعالى بيننا لرحمة عظيمة منه تعالى.

ثم لولا حجاب الغيب بين الناس لنشبت الحروب في الدنيا كلها ودمرتها. يقول الرسول ﷺ: الحرب خُدعةٌ (الترمذي: أبواب الجهاد).. أي أن أفضل الطريق للحرب هو أن تخفي كل الأمور عن العدو، وأن تدير الأمر بالسياسة وتمويه العدو. ولكن لولا حجاب الغيب، لعلِمَ أحد الفريقين بمكان العدو ولوجّه إليه مَدافعَه، ولسقطت قذائف الفريق الآخر على رؤوس عدوه مباشرة، فلم يبق من الطرفين متنفس واحد. ولكن ما يحدث الآن هو أنه إذا خاض الحرب جيش قوامه مئة ألف جندي، لم يقتل منهم إلا بضعة آلاف ويرجع بقية الجيش سالمين، ولكن لولا حجاب الغيب بين الفريقين لعلم الطرفان كل شيء، ولضرب كل واحد منهما عدوّه ضربة قاضية ولم يسلم من الهلاك أحد.

ثم إن التقدم العلمي والاكتشافات الجديدة والعلوم المبتكرة أيضا منوطة بالغيب نفسه. إذ لو كان كل شيء ظاهرا مكشوفا لانتهت هذه السلسلة من السعي والعمل والاختراع، ولأصبح الإنسان كائنًا عاطلا. فثبت أن كل الكون يدار نتيجة الغيب، ولولا الغيب لانتهى هذا الكون.

ثم إن الجزاء والعقاب في العالم الروحاني أساسه أيضًا الغيب، ولو أُزيل حجاب الغيب لما ترتب على الحسنة جزاءٌ ولما نال المرء على ترك السيئة ثوابًا. ذات مرة زرنا مدينة "لكناو"، فوجدنا هنالك شيخًا أفغانيًا شديد العداء لجماعتنا وكان اسمه عبد الكريم. وقد ألقى بعد مجيئنا هناك خطابا تحدّث فيه بكل احتقار وبذاءة عن حادث وقع مع المسيح الموعود عليه السلام. والحادث الذي أشار إليه هذا الشيخ بأسلوبه البذيء هو أن المسيح الموعود عليه السلام ذهب مرة إلى دهلي، وكان هناك قريب لأحد أخوالي يدعى ميرزا حيرت الدهلوي، فخطرت بباله مكيدة شريرة، فجاء إلى مكان إقامة المسيح الموعود عليه السلام متنكّرًا في زيّ مفتّش شرطة ليخوّفه، وقال له: لقد بعثتني الحكومة لآمرك بمغادرة هذه المدينة فورا وإلا لتعرضت لضرر كبير. فلم يلتفت إليه المسيح الموعود عليه السلام، وعندما أراد بعض الإخوة تحرّي الأمر هرب هذا المفتش

الزائف. هذا هو الحادث الحقيقي، ولكن هذا الشيخ الأفغاني قام بتزييف الحقائق في خطابه فقال أن مؤسس جماعتهم يدّعي بأنه إله، ولكنه لما ذهب إلى دهلي حضره "ميرزا حيرت" في زي مفتش شرطة، وصعد إلى غرفة المؤسس في الطابق الثاني – وهذا كذب صريح لأن المسيح الموعود عليه السلام لم يكن في الطابق العلوي بل كان في الطابق الأرضي – فلمّا سمع بمجيء مفتش الشرطة أصابه الهلع، حتى زلّت قدمه أثناء نزوله من الدرج وسقط على وجهه. فضحك الناس واستهزأوا بسبب خطاب الشيخ عبد الكريم الأفغاني، ولكن في نفس الليلة حل عقاب الله بالشيخ، حيث كان نائمًا على سطح بيته الذي لم يكن محوطًا، فأراد أن ينزل لحاجة وهو نعسان، فسقط من السقف ومات في مكانه. (حيات أحمد (أردو) المجلد الثالث الجزء الأول ص ١٦٩)

فلو لم يكن هناك حجاب الغيب وعلم هذا الشيخ أنه سيعاقَب على هذه الإساءة والوقاحة لما فعل ما فعل، بل آمن بالمسيح الموعود عليه السلام، ولكن مثل هذا الإيمان لا ينفع صاحبه شيئا إذ لولا عنصر الغيب في الإيمان لما كان فيه فائدة، إنما الإيمان النافع ما يكون في حالة الغيب، أما إذا كان الثواب أو العقاب ظاهرًا بيّنًا فكل واحد سيؤمن. إن أبا بكر رضي الله عنه لم يؤمن إلا وهو يدرك بأن عليه تقديم التضحيات في سبيل الدين ولا بد له أن يضحي بنفسه؛ ولكن لولا حجاب الغيب ولو علم أبو بكر مسبقا أن هناك نعمًا مقدرة له فآمن طمعًا في هذه النعم لما كان لإيمانه نفع. كذلك لما آمن عمر رضي الله عنه لم يكن يعلم أن سيصبح خليفة في يوم من الأيام، وإنما كان قد خرج بنيّة قتل الرسول ﷺ، ولكنه لما قرأ بضعة أوراق من القرآن الكريم وجدها عند أخته، حصحص له الحقّ فآمن وهو يعلم أن عليه أن يقدّم نفسه في سبيل الإسلام. (السيرة النبوية لابن هشام: الجزء الأول: إسلام عمر)

أما عثمان رضي الله عنه فكان إنسانا هادئ الطبع متواضعًا، ولكن الله تعالى قد أكرمه بسبب تضحياته إكرامًا عظيمًا، ففي صلح الحديبية لما أراد النبي ﷺ أن يبعث أحد أصحابه للتفاوض مع أهل مكة، قال الصحابة كلّهم: يا رسول الله، إن عثمان هو أنسب شخص لهذه المهمّة. فذهب عثمان إلى مكة، وكان له فيها أقارب كثيرون،

فقالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُفْ، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. وأبطأ عثمان رضي الله عنه في المفاوضات مع أهل مكة حتى خيّم الظلام، فطارت الأراجيف بين المسلمين أنه قد استُشهد. فجمع النبيّ ﷺ صحابته حين بلغه ذلك ودعاهم إلى البيعة على الموت، وهي البيعة الوحيدة التي أخذها الرسول ﷺ على الموت. فبايع الصحابة على يده بأنهم سيقاتلون العدو جميعًا حتى الموت. ولما فرغ الصحابة من البيعة قال النبي ﷺ: إن عثمان ليس بيننا وربما قُتل ولكن هناك إمكانية أن يكون حيًّا، فوضع النبي ﷺ يده الأخرى على يده وقال: هذه بيعة عثمان. (تاريخ الخميس: الجزء الثاني ص ٢٢ بيعة الرضوان، والسيرة النبوية لابن هشام: الجزء الثالث، أمرُ الحديبية ص ١٥٨).

فترى مدى التكريم العظيم الذي ناله عثمان بهذه المناسبة. والحق أنه لو عُمّر ألف سنة وضحى بحياته في سبيل الإسلام، لما كان لتضحيته أي قيمة إزاء هذا التكريم. ولكن عثمان لو علم مسبقا أن هذا الإعزاز والتكريم مقدر له، وأن كذا وكذا من النعم مكتوبة له، وآمن طمعًا في هذه النعم والجوائز، لما كان لإيمانه قيمة ولا ثمن.

أما عليّ رضي الله عنه فآمن وهو لا يزال صبيا، وقد آمن مدركا أنه سيتعرض لشتى المحن نتيجة إسلامه وأنه ربما يضطر للتضحية بنفسه في سبيل الله ﷻ. ورد في الروايات أن النبي ﷺ في بداية رسالته أقام مأدبة دعا إليها بني عبد المطلب لكي يبلغهم رسالة الله. فحضرها كثير من أقاربه، فلما فرغ الجميع من الطعام أراد النبي ﷺ أن يبلغهم رسالة الله، ولكن أبا لهب شتّتهم جميعا، فرجع الناس إلى بيوتهم دون أن يسمعوا من كلامه ﷺ شيئًا. فأخذته الحيرة وقال: ما بال القوم لا يسمعون لقولي وقد أكلوا عندي. ولكنه ﷺ لم ييأس، وأمر عليًّا رضي الله عنه بإقامة مأدبة أخرى، فدُعي إليها الجميع ثانية، فلما أكلوا وشبعوا قام النبي ﷺ وقال: أيها الناس، لقد منّ الله عليكم إذ بعث فيكم نبيا من أنفسكم. إني أدعوكم إلى الله، فلو آمنتم بي لورثتم نعم الدين والدنيا. هل فيكم من يؤازرني في هذا الأمر؟ فساد السكوت على الجميع، ولكن قام صبيّ

من بينهم فجأة وقال: أنا يا رسول الله مع أنني أضعف القوم وأصغرهم سنًّا. وكان هذا الصبي هو عليّ ﷺ. (السيرة الحلبية: الجزء الأول ص ٢٨٥- ٢٨٦)

كما وفّق الله عليّا ﷺ لتقديم تضحية عظيمة أخرى وهي أن رسول الله ﷺ لما أراد الخروج من بيته ليلة الهجرة أمر عليًّا ﷺ أن ينام على سريره مكانه حتى إذا نظر الكافرون داخل البيت ظنوه ﷺ نائمًا و لم يخرجوا لمطاردته. فلم يقل علي للنبي ﷺ: يا رسول الله، إن فتيان قريش محاصرون للبيت شاهرين السيوف، ولو أنهم علموا في الصباح أنك قد خرجت من البيت لهجموا عليّ وقتلوني، بل إنه نام على سرير النبي ﷺ دونما خوف، فوضع النبي عليه رداءه. ولما رأت قريش في الصباح أن عليًّا هو الذي خرج من سريره عضّوا الأنامل من الغيظ، وأخذوه وضربوه. ولكن ما كان هذا لينفعهم شيئًا، إذ تحققت النبوءات السماوية وخرج النبي ﷺ من مكة سالمًا (السيرة الحلبية: الجزء الثاني، باب عرض النبي ﷺ على القبائل أن يحموه). و لم يكن عليّ ﷺ يعلم عندها ما كتب الله له من الجوائز والنعم، ولكن الله تعالى كان يعلم أنه ليس عليّ وحده الذي ينال العزّ والإكرام بسبب هذه التضحية، بل إن أولاده أيضا سينالون الإعزاز والتكريم. فأول ما منّ الله به على عليّ ﷺ أنه شرّفه بأن يكون نسيبا للرسول ﷺ، وثانيًا قد ألقى الله تعالى في قلب الرسول ﷺ حبًّا شديدًا تجاه عليّ حتى إنه أثنى عليه في مناسبات عديدة، ولا شك أن عليًّا ﷺ حين كبر شعر بمنتهى الاعتزاز والراحة برؤية هذه الأفضال الإلهية.

وذات مرة أراد النبي ﷺ الخروج لحرب وأمَر عليًّا أن يبقى في المدينة، فقال: يا رسول الله، هل تتركني مع النساء والصبيان؟ فقال ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ (الترمذي: أبواب المناقب، باب مناقب عليّ).. أي أن موسى عليه السلام لما ترك هارون وراءه، هل كان في ذلك أي نقصان في مكانة هارون؟

فترى أن التضحيات التي قدمها عليّ ﷺ لا تساوي شيئًا إزاء هذا الإعزاز والتكريم. وليس هذا فقط، بل إن أكثر أولياء الأمة والصوفية كانوا من أولاد علي ﷺ. وقد أظهر الله على أيديهم معجزات تحيّر العقول. لقد سمعت من سيدنا المسيح الموعود عليه السلام مرة أن هارون الرشيد أمر بسجن الإمام موسى الرضا – رحمه

الله – لسبب ما، فأُلقي في السجن مكبّلاً. و لم تكن في ذلك الزمن مفارش مريحة ذات اللوالب كالتي نجدها في هذه الأيام، بل كانت مفارش عادية محشية بالقطن. وكان هارون الرشيد نائمًا في قصره على فراشه المريح مرة، فرأى في المنام أن الرسول ﷺ جاءه والغضب باد على وجهه الشريف، وقال له: إنك تدّعي بأنك تحبّنا ومع ذلك لا تخجل أنك نائم على الفراش المريح نومًا عميقًا مريحًا وابني ملقًى في السجن مكبّل الأيدي والأرجل في الحر الشديد؟ فتنبّه هارون الرشيد من نومه والفزع مستول عليه، فأسرع مع بعض قادته إلى السجن، وأخذ يحل بيده قيد الإمام موسى الرضا رحمه الله. فقال له الإمام: ما بالك قد جئتني الآن بنفسك وقد كنت تعادينا عداء شديدًا؟ فحكى له هارون الرشيد منامه طالبًا منه العفو عنه إذ لم يكن يعرف حقيقة الأمر. (ملفوظات (أردو)، المجلد الخامس ص ٤٩٣)

لقد رأينا أولاد الكثير من الملوك مشرّدين يُدَعُّون على الأبواب دعًّا. فقد رأيت بنفسي شخصًا من العائلة المغولية التي كانت حاكمة على الهند يعمل سقّاءً، ولكنه كان يملك من الحياء ما يمنعه من سؤال الناس. وعلى النقيض ترى أن الله تعالى يحذّر ملِكًا في الرؤيا ويأمره بحسن معاملة أولاد عليّ ﷺ، وذلك برغم انقضاء كل هذه الحقبة الزمنية الطويلة على عصر النبي ﷺ وعليّ ﷺ. ولكن لو كان عند عليّ ﷺ علم الغيب وعلِم أنه سينال هذه العزة، ولو أنه أسلم من أجلها، لما كان إيمانه إلا تجارة مادية لا تستحق أي إنعام ولا جزاء.

كذلك قد آمنت السيدة خديجة – رضي الله عنها – وهي لا تعلم ما كتب الله تعالى لها من بركات نتيجة إيمانها. ولا شك أنها قد ضحّت بكل مالها في سبيل الإسلام ومن أجل محمد ﷺ، حتى اضطرت لتعيش في فقر وضيق بعد أن كانت أغنى سيدة في مكّة. ثم إنها عانت الشدائد في شِعب أبي طالب على مدى ثلاث سنوات متتالية مما أدى إلى وفاتها بعد خروجها من شِعب أبي طالب فورًا (السيرة النبوية لابن هشام: حديث تزويج النبي ﷺ خديجة، خبر الصحيفة). فتقبّل الله تعالى تضحياتها قبولا حسنا حتى إن العالم الإسلامي كله يذكرها حتى اليوم باحترام وتقدير عظيمين.

لقد ألقى الله تعالى في قلب رسوله ﷺ حبًّا عميقًا لخديجة. لقد جيء بأبي العاص في واقعة بدر أسيرًا وكان زوجَ بنت الرسول ﷺ زينب ولكنه لم يكن قد أسلم بعد، فبعثت زينبُ من مكة، عِقْدًا لها تفتدي به زوجها، وكان هذا عِقدًا قد أعطتها إياه أُمُّها خديجة. فلما رأى الرسول ﷺ هذه القلادة تذكّر زوجته خديجة فاغرورقت عيناه بالدموع، وقال لأصحابه: إن شئتم فاتركوا هذا التذكار لخديجة محفوظا عند ابنتها. (السيرة النبوية لابن هشام: أبو العاص عند الرسول وبعث زينب في فدائه)

وبعد انقضاء عدة سنوات على وفاة خديجة – رضي الله عنها – كان النبي ﷺ جالسا في بيته ذات يوم إذ جاءت هالة أختُ خديجة واستأذنت للدخول، وكان صوتها يشبه صوت خديجة كثيرًا، فلما تناهى صوتها إلى أذن النبي ﷺ تذكّر خديجة وهبّ من مكانه مرتاعًا وقال: ربّاه، هذا الصوت كصوت خديجة.*

ثم إن الله تعالى قد منّ على خديجة – رضي الله عنها – منّة أخرى إذ رزق النبي ﷺ جميع أولاده من خديجة إلا إبراهيم الذي ولدته مارية القبطية (أُسُد الغابة: كتاب النساء، حرف الميم). لقد رُزق النبي ﷺ من خديجة ثلاثة ذكور وأربع إناث، وقد توفي أبناؤه في صغرهم أما بناته الأربع: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهن، فقد كتب الله لهن الحياة ووفّقهن للدخول في الإسلام (أسد الغابة: كتاب النساء، حرف الخاء). وقد وُلد الإمامان الحسن والحسين من بطن فاطمة الزهراء بنت خديجة، وهي التي يسمَّى أولادها اليوم السادات والأشراف– رضي الله عنهم أجمعين.

إذًا، فقد أنعم الله على خديجة وعلى نسلها كلهم نعما عظيمة خارقة للعادة، ولكن خديجة – رضي الله عنها – لو علمتْ عندها أنها ستنال هذا الإعزاز العظيم حيث يدعوها العالم الإسلامي كله "أم المؤمنين"، وأن نسلها سينال العزة والتكريم

---

* نصُّ الحديث كالآتي:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذنتْ هالةُ بنتُ خويلد أختُ خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذانَ خديجة، فارتاع لذلك، فقال: "اللهم هالةُ". (البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي ﷺ خديجة) (المترجم)

إلى يوم القيامة، لما كان إيمانها نافعًا لها؛ لأنها ستكون قد آمنت من أجل العزّة والمكانة فقط، لا لوجه الله تعالى.

وبالمثل كان أبو جهل يظن أنه سيقضي على محمد ﷺ وأصحابه ويمحو كل أثر للإسلام، ولكنه لو علم أن الإسلام سينتشر في الدنيا رغم معارضته، وأن الدنيا ستذكره باللعنة والثبور، وأنه سيُقتَل في الحرب ضد الإسلام، بل إن ابنه نفسه سيُسلِم، لما رفع صوته ضد الإسلام.

قصارى القول إنه لولا حجاب الغيب لما صار أبو بكر أبا بكر ولا أبو جهل أبا جهل.

بيد أنه إذا كانت أمور الدنيا تتم نتيجة وجود حجاب الغيب أمام أهلها، فإن إيمان المؤمنين يزداد نتيجة انكشاف الغيب. فعندما يُبعث الأنبياء في الدنيا ويخبرون أهلها بأخبار الغيب، ثم تتحقق أنباؤهم رغم الظروف غير المواتية، يتولد في قلوب المؤمنين إيمان جديد، ويظهر وجود الله تعالى أمام الناس عيانًا بحيث إن أي إنسان أمين لا يمكنه إنكار وجود البارئ تعالى.

في زمن المسيح الموعود عليه السلام حصل شجار بين المسلمين الأحمديين وغيرهم على ملكية مسجد في مدينة "كبور تهله"، وكان القاضي يسلك مسلكا معارضا للأحمديين، فخافت جماعتنا في "كبور تهله" وكتبوا إلى المسيح الموعود عليه السلام يطلبون منه الدعاء. فكتب لهم في الجواب: إن كنتُ من عند الله تعالى فسوف يُردّ المسجد إليكم. ولكن القاضي استمر في سلوكه المعادي حتى إنه أصدر حكما ضد الأحمديين. وفي اليوم التالي كان يجهّز نفسه لحضور المحكمة ليعلن قراره، فأمر خادمه بأن يُلبِسْه الحذاء. فألبسه أحد نعليه، وبينما هو يلبسه النعل الآخر سمع صوتًا، ولما رفع بصره وجد القاضي قد فارق الحياة بسكتة قلبية. وبعد موته عُيّن قاض آخر للفصل في القضية، فغيّر الحُكم لصالح الجماعة. فكانت آيةً عظيمة لأفراد الجماعة، فازدادوا إيمانا مع إيمانهم حتى بلغ إيمانهم عنان السماء. (أصحاب أحمد (أردو) المجلد الرابع ص ٢٣-٢٥)

إذًا، فمن سنة الله ﷻ أنه ينبئ أنباءً غيبية باستمرار بواسطة الأنبياء، وعندما تتحقق يزداد المؤمنون إيمانا مع إيمانهم.

إن أنباء الغيب هي التي ملأت قلوب المؤمنين بمحمد ﷺ بسالة وشجاعة حتى إن أحدهم كان يرقص فرحا إذا وجد فرصة التضحية في سبيل الله تعالى، وكان يقول: فزتُ وربِّ الكعبة، مع أننا نرى الناس يخشون الموت أشد الخشية! كيف تولّدت فيهم هذه الروح يا ترى؟ إنما نفخها فيهم محمد ﷺ بإخبارهم أنباء الغيب. ولولا انكشاف الغيب على المسلمين، لما تبوءوا ذلك المكان الرفيع من الإيمان.

فكلا الأمرين ذو فائدة للناس؛ الغيب نافع في حد ذاته، كما أن انكشاف الغيب نافع في حد ذاته أيضا. إن اللذة كلها في الغيب، وإن الروحانية كلها في انكشاف الغيب.

والصفة الإلهية الثانية التي قد أُشير إليها في مقطعات ﴿طسم﴾ هي "السميع". والسميع هو من يسمع دعاء الناس ويتقبله بشكل عجيب، وليس بمقدرة أحد سواه- حيًّا كان أو ميتًا - أن يستجيب لأدعية الناس، إنما الله وحده يستمع لدعائهم ويستجيب لهم. وبالفعل ترى أن بعض الناس يدعون الله تعالى في أوروبا، وبعضهم في آسيا، وبعضهم في الصين، وبعضهم في اليابان، وبعضهم في روسيا، وبعضهم في مصر، وبعضهم في الشام وبعضهم في فلسطين، ومع ذلك فيستجيب لأدعية الجميع.

فالله تعالى قد نبه الناس بذكر هذه الصفة أن إلههم إنما هو ذلك الذي يستجيب لأدعيتهم ويسدّ حاجاتهم كلها. فمن واجبكم أن تنيبوا إليه تعالى وتدعوه كلما واجهتكم الشدائد. وهذا الدعاء لا يكلّف المرء مالاً ولا مهارة ولا قوة ولا طاقة، فمن كانت يداه مشلولتين، أو بلغ به الضعف بحيث لا يقدر على أن يهبّ من فراشه ليقوم بأداء حركات الصلاة، فهو الآخر يستطيع أن يدعو، لأن الدعاء لا يستلزم هذه الأمور، بل يمكنه الدعاء وهو مستلق على فراشه، بل حتى لو كان لسانه مفلوجًا و لم يقدر على ترديد كلمات الدعاء، فبوسعه أن يدعو في قلبه. أما إذا كان أحد قد فقد العقل فإنه معذور لأنه قد انقضى وقت عمله، ولكن ما دام

الإنسان في الدنيا ولا يخرج عن حدوده الإنسانية الطبيعية، فبوسعه أن يقوم بالدعاء وإن كان معاقًا إلى أقصى الحدود، حتى إن الأخرس الذي لا يقدر على النطق، والأصم الذي لا يقدر على السمع، والمفلوج الذي أعوزه الحس والحركة وصار طريح الفراش كأنه مضغة لحم، فإن بوسعه أيضًا أن يدعو ربّه بكل حماس وحرارة كأي إنسان صحيح معافى يدعو ربه.

فالدعاء شيء قد جعل البسطاء والأكابر والفقراء والأثرياء سواسية، والدعاء هو السلاح الماضي الذي يقول الله تعالى بشأنه في القرآن الكريم: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾(النمل:٦٣). من ذا الذي يسمع دعاء عبده المضطرّ فيأتي لإغاثته مسرعًا؟ يقول الله تعالى إنني أنا الذي أجيب دعاءه!

فالدعاء أكثر الأعمال قوة. لا شك أن الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد كلها أحكام مهمة لا بد من العمل بها، ولكن الدعاء هو العمل الذي قال الله تعالى عنه إن العبد إذا دعاني بصدق القلب أتيت لنجدته حتمًا. قال الله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾(البقرة: ١٨٧).. أي عندما يسألك عبادي عنّي يائسين من الآلهة الأخرى التي اتخذوها من البشر مثلهم وقالوا: أين ربنا السماوي، فقد ضقنا ذرعًا من أناس كأمثال فرعون ونمرود وشدّاد، فلا ندري أين نفرّ منهم، وكيف نتخلص من المصائب والبلايا؟ فقل لهم إنهم ليسوا بحاجة للمجيء إليّ ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.. أي قد جئتُ بنفسي قريبا منهم. ولو كان أحد من آبائهم أو أعمامهم وغيرهم من أقاربهم قادرًا على نصرتهم وكان على مقربة منهم، لكان عليهم أن يفرّوا إليه، ولكنهم الآن ليسوا بحاجة إلى الفرار إلى أي مكان، إذ قد أتيتُ بنفسي قريبًا منهم، فلن أتأخر عن إغاثتهم. إذا كان المرء يضطر للذهاب إلى أصدقائه وأقاربه لينصروه، فإني قد جئتهم مسرعًا، فكيف يمكن أن يبقوا في المعاناة.

هذه الرسالة التي وجهها الإسلام لكل فرد من البشر رسالة عظيمة ثورية بحيث لا يمكن بعدها لأي أذى أن يحزُن الإنسانَ. إذا كان عدوّك قد بلغ في استكباره عنان السماء فما فوقها، فإنك لو دعوت ربّك بصدق القلب فإن الله قادر أن يمدّ يده من السماء ويكسر عنقه. ومهما اتخذ العدو الحيطة في الأكل والشرب ليل

نهار، ومهما قام بتصفية الماء الذي يشربه، فإن الله تعالى لو قرر هلاكه أمَر جراثيمَ الكوليرا أو الطاعون أو الرشح بالهجوم عليه بأعداد لا ينفع معها دواء ولا علاج في الدنيا، فيموت في كرب وعذاب، ليفرح عبد الله المؤمن بأن الله تعالى قد نصره.

حُكي أن أحدًا من أولياء الله تعالى كان يقيم في حيّه أناس يعملون في البلاط الملكي، وكان من عادتهم الانغماس في الغناء والموسيقى في ساعات متأخرة بالليل. فنصحهم مرارا بأن يمتنعوا عن ذلك ولا يفسدوا على الناس نومهم ولا صلاتهم، فلم ينصاعوا له. فلما ألحّ عليهم كثيرًا خافوا أن يجمع أهل الحي معه فيمنعوهم من الغناء، فأحضروا بعض الجنود الملكيين لمساعدتهم. فلما علم الرجل الصالح بما فعلوا قال: إذا كانوا قد أتوا بالجنود لحمايتهم فإننا سنحاربهم بسهام الليل (أي الدعاء). ويبدو أن الصلاح وخشية الله لم تزل في قلوب هؤلاء القوم، فلما علموا أن الرجل الصالح يهدد بمحاربتهم بسهام الليل، جاءوه مسرعين واعتذروا إليه قائلين: لا تقاتلنا بسهام الليل، فلن نعود لما كنا نفعله.

فالدعاء سلاح رائع لو استعمله المرء بيقين كامل وإيمان قوي لصار المستحيل ممكنًا. أتذكر جيدًا أننا ذهبنا مرة للتنزه على ضفة النهر مع بعض الأصدقاء، بمن فيهم السيد عبد الرحيم الذي كان أستاذي في الصغر. وبينما كان القارب يجري بنا في النهر قال لي ابني ناصر أحمد، وكان طفلا صغيرًا: يا أبت، لو كان عندنا سمك في هذا الوقت لكانت متعتنا أكثر. فقلت له: يزعم الناس أن "الخضر" يحكم المياه، ولو أنه رمى إلينا بسمكة لتحققت أمنيتك. وعندما قلت له هذا قال السيد عبد الرحيم متضايقًا: ماذا تقولون؟ إن هذا الولد يهذي. فقلت: إن ربنا يملك القدرة كلها، ولو أراد لبعث إلينا سمكة. وما إن أكملت كلامي حتى ارتفع موج من الماء وقفزت منه سمكة كبيرة ووقعت في القارب. فقلت للسيد عبد الرحيم: أرأيت كيف تجلى الله بقدرته وحقق لنا أمنيتنا؟ لا شك أن الخضر المزعوم قد مات، ولكن ربنا الذي هو خالقنا ومالكنا هو حي وسميع الدعاء، ويعلم ما يختلج في قلوبنا من مشاعر وأمان، فلما رأى أمنيتنا حقق بفضله ما قلتُ.

وذات مرة أخذ المطر يهطل بعد حرّ شديد، ففتحتُ نافذة غرفتي لأتمتع بمنظر المطر، وبما أن المطر قد نزل بعد انقطاع طويل، فوجدت به متعة كبيرة. وكنت مصابا بمرض الإسهال في تلك الأيام، وبينما أنا أتمتع بمنظر المطر، شعرت بالحاجة إلى دورة المياه. فدعوت الله تعالى بصورة عفوية: رب، لو انقطع المطر خلال غيابي فأنزلْه ثانية عند عودتي فضلا منك ورحمة. فلما تركت مكاني انقطع المطر فورًا، وعندما رجعت إلى غرفتي وفتحت الشباك عاود المطر واستمر نزوله إلى نصف ساعة أو أكثر. فترى أنه لم يكن لي أي تصرف على المطر، ولكن الله تعالى بفضله جعله ينزل ثانية بمجرد أن دخلت غرفتي.

وفي عهد الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام ذهبت إلى أحد فروع جماعتنا بدعوة منهم. وعندما كنت عائدًا من هناك، فكّرت في حاجة كنت أريد شراءها، فوضعت يدي في جيبي فوجدت أن المبلغ الذي معي لا يكفي لشراء ما أريد بل تنقصني روبية واحدة، فدعوت الله تعالى قائلا: رب ابعثْ لي روبية واحدة من عندك! وبينما كان هذا الدعاء ينبعث من قلبي رأيت شخصًا قادمًا إلينا من قرية قريبة. فالتفّ رفاقي حولي لأجل حراستي، فقلت: ماذا حصل؟ قالوا هذا الشخص عدو لدود لجماعتنا ويهاجم الأحمديين كثيرا، فاجتمعنا حولك حتى لا يصيبك بأذى. وعندما اقتربنا من القرية جاءني هذا الشخص يجري ودفع أصحابي وتقدّم إليّ ومدّ يده في منتهى الأدب ووضع على يدي روبية، وذهب. فقلت لرفقائي: كنتم تقولون إنه جاء بقصد إيذائي، ولكنه بدلاً من ذلك أهدى لي روبية. ثم أخبرتُهم أنني كنت دعوت الله تعالى في قلبي قبل قليل بأن يبعث لي مِن عنده روبية واحدة، فأرسل هذا الشخصَ ليعطيني الروبية هديةً.

إذًا، لو كان المرء موقنًا بالله تعالى يقينًا كاملا لأظهر له آيات عظيمة. لقد ورد في الحديث أن ثلاثة نفر ممن قبلنا انطلقوا، فجاءتهم عاصفة شديدة المطر، فأَوَوا إلى غار، فانحدرت صخرة من الجبل وسدت عليهم الغار، فلم يستطيعوا الخروج من الغار. لقد فرّوا من مصيبة صغيرة إلى الغار فوقعوا في أشد منها. فلم يجدوا في تلك البرية من ينجيهم من هذه المصيبة. فبلغ منهم الهلع كل مبلغ، فلما لم يجدوا مخلصا

مما هم فيه، قال أحدهم لرفقائه: تعالوا ندع الله تعالى متوسلين بأكبر حسنة عملناها في حياتنا لكي يزيح الصخرة عن فم المغارة. فأخذ أحدهم يدعو ربه قائلا: اللهم أنت تعلم أنني كنت استأجرت أجيرًا ذات مرة، فذهب قبل أن يأخذ مني أجرته، فاستثمرتُ أُجرتَه في التجارة، فاشتريت بها شاة، فكثرت أولادها حتى صار عندي قطيع كبير فيه مئات الماعز والشياه. فجاءني هذا الأجير بعد عدة سنوات وقال: أَدِّ لي أجرتي! فأخذته معي وقلت: كل ما ترى من هذا القطيع هو أمانتك التي تركت عندي، فخذها. فقال: يا عبد الله، لا تستهزئ بي، فليس لي عندك إلا نصف درهم! فقلت له: لقد استثمرتُ أُجرتك في التجارة فصارت هذا القطيع من الماعز والشياه كما ترى. فقال: إذًا فهي ليست لي، بل هي لك. فقلت له: كلا، إذ لم أستثمر مالك لنفسي بل لك. فأخذته الحيرة، واستاق القطيع إلى بيته. اللهم، إن كنتُ قد فعلتُ ذلك ابتغاء مرضاتك، فارحمني وحوِّلِ الصخرة عن فوهة المغارة. فانفرجت شيئًا قليلا، ولكنهم لم يستطيعوا الخروج.

فدعا الآخر وقال: اللهم كنتُ أحب فتاة من أقاربي حبًا شديدًا، فراودتها عن نفسها فامتنعت، حتى حلّت بالبلاد مجاعة شديدة، فعانت الفتاة وأقاربها من الجوع حتى أوشكوا على الموت. فاضطرت للمجيء إليّ طلبًا للمساعدة، فأعطيتها المال على أن تُخلي بيني وبين نفسها، فرضيت على مضض. حتى إذا اقتربت منها ناشدتْني اللهَ تعالى بأن لا أدفعها إلى المعصية! فما إن سمعتُ قولها حتى تركتُها، وقلتُ: لقد استعذتِ بعظيمٍ، فأتجنب المعصية لوجهه تعالى. فانصرفت إلى بيتها بالمال الذي أعطيتها. اللهم إن كنتُ قد فعلتُ هذا ابتغاءَ وجهك ونيل مرضاتك، ففَرِّجْ عنا هذه الصخرة. فجاء من فوق الجبل سيل جارف، فانفرجت الصخرة قليلا غير أنهم لم يستطيعوا الخروج منها.

ثم توجَّهَ الثالث إلى الله تعالى وقال: اللهم إنك تعلم أنني كنت أرعى الغنم وأعيش على درّها، فخرجت بها مرة بعيدا، ورجعت إلى البيت متأخرًا جدًّا. وكان لي أبوان كبيران وأولاد صغار. فلما رجعتُ وجدتُ والدَيّ نائمين، أما أهلي وأولادي فكانوا مستيقظين ينتظرون، فطلبوا مني الحليب ليشربوه وينام. فقلت:

لن أُطعم أحدًا قبل أبويّ. فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما، بينما ظل أهلي وأولادي يصرخون جوعًا ولكني لم أبال بذلك، حتى برق الفجر فاستيقظ أبواي فشربا الحليب، ثم قدّمتُه لأهلي وأولادي. اللهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء مرضاة وجهك و لم تكن بنيتي شوائب الدنيا فأَزِحْ هذه الصخرة عن طريقنا. فجاء سيل عارم أزاح الصخرة عن فم المغارة، فخرج الثلاثة. (البخاري: كتاب الإجارة: باب من استأجر أجيرًا فترك أجره)

إذًا، فالدعاء سلاح عظيم ينفع الإنسان عند كل شدّة وينجّيه من كل مصيبة. فما أشدَّه غباءً مَن يترك هذا السلاح الرائع عند حلول مصيبة ويتوجّه للاستعانة إلى غير الله تعالى! إنما المؤمن الحقّ من يسأل الله تعالى كل حاجة حتى شراك نعله، موقنًا بأنه تعالى قادر على سدّ كل حاجة، وأنه لن يُرجعه من بابه خائبًا خاسرًا. عندما تستولي هذه الحالة على باطن المؤمن، ينسى العالم كله ولا يرى أي معين حقيقي سوى الله ﷻ.

لقد ذكرت من قبل مرارًا أنه كان في جماعتنا أخ اسمه المولوي إمام الدين، وكان من قرية "جوليكي" في محافظة غجرات، وهو والد القاضي أكمل، وقد تُوفّي الآن. كان شخصا صوفيا وكان يقول لي دائمًا إننا لم نحرز في الأحمدية تلك المكانة الروحانية العالية التي كنا نسمع عنها كثيرًا. فقلت له مرة: ما هي تلك المكانة السامية التي كنت تسمع عنها؟ قال: كان شيخنا في التصوف يقول لنا: إن الذي يعيش في صحبتنا بضعة أيام نمكّنه من السجود على العرش ومِن رؤية الله تعالى عيانًا. ثم قال لي المولوي إمام الدين: لا شك أني أراني أفضل حالا مما كنت عليه قبل انضمامي للأحمدية، ولكني لا أرى فيها ذلك المشهد الروحاني الذي كان شيخنا يتحدث عنه. فقلت له: كان الخليفة الأول رضي الله عنه يحكي لنا أن أحد الشيوخ المتصوفين لما سمع أني قد بايعت على يد المسيح الموعود عليه السلام أرسل إليّ أحد مريديه وقال: ما الذي أحرزتَه بتصديق هذا الرجل وبيعته؟ لو بايعتَني أنا لمكّنتُك من السجود على العرش دون تأخير لما أتمتع به من مكانة روحانية. فقلت لمريده: قل لشيخك، ألا يرى أنني لو سجدتُ على العرش سوف أتلقى الضرب والإهانة إذ

سيقول لي الله تعالى: لقد أمرتك بالسجود على الأرض وأنت جئت للسجود في السماء؟

ولما سمع المولوي إمام الدين قولي هذا قال: هذا صحيح، ولكن قلبي لا يطمئن بما تقول. فلم يزل بعد ذلك يثير نفس السؤال كلما قابلني وكنت أجيبه بأسلوب أو آخر ولكنه كان لا يطمئن. وقلت له في آخر مرة: هل فكّرتَ مرة كيف تكون حال من يرى الله عيانًا ويبلغ من الروحانية بحيث يسجد على عرش الرحمن؟ لا شك أن الله ﷻ يتكفّل مثل هذا الإنسان ويجعله في غنى عن الناس، فلن يسأل أحدًا سوى الله تعالى، ويكون مصداقًا لوحي الله تعالى للمسيح الموعود عليه السلام: "ينصرك رجال نوحي إليهم من السماء" (براهين أحمدية، الخزائن الروحانية المجلد الأول ص ٢٦٧)، وإنْ ساعده الناس في الظاهر؛ وسيساعده الناس لحاجتهم إليه، وليس لحاجته إليهم. إن الذي يعطي مثل هذا الإنسان شيئا يظنّ أنه يساعده، ولكن الواقع أن هذا الإنسان يوقن بأنه قد أحسن إلى هذا حين قبِل هذا الشيء من المعطي، ذلك لأنه يوقن في قرارة نفسه أن الله تعالى هو الذي يبعث الناس لسدّ حاجاته سواء أجاءه زيد أو عمرو بتلك الهدية، وأنه ليس بحاجة إلى زيد أو عمرو، إنما هو محتاج إلى الله تعالى. إن مثل هذا الإنسان يدرك جيدًا أن الله تعالى هو الذي يبعث له هذا الشيء أيًّا كان الشخص الذي أتى به. ثم قلت للمولوي إمام الدين: فأَخْبِرْني الآن: هل يتبوّأ شيخك هذا المقام؟ أعني هل الله تعالى يتكفّله في كل ما يحتاج إليه؟ فسكت مليًّا ثم قال: الآن قد فهمتُ كل شيء! إن شيخنا يدّعي بأنه سيمكّننا من رؤية الله عيانًا ومن السجود على العرش، ولكنه يخرج إلى الفلاحين والمزارعين زمن الحصاد ويقول لهم: لا تنسوني أنا أيضا. لقد علمتُ الآن أنه لو كان يتمتع بقرب الله حقًّا كما يزعم لما قال لأحد من عباد الله تعالى أن لا ينساه.

باختصار، إن الذي يحظى برؤية الله ﷻ فلا ينظر إلا إلى الله، ولا يعرض حاجته إلا إلى الله، ولا يرى أحدًا سوى الله تعالى نصيرا أو كفيلا.

بيد أنه من الواجب على المؤمن، إضافةً إلى أن يدعو الله تعالى دائمًا، أن يتخلّى عن الطمع والجشع كلية وفي كل حين، ولا يشكو ربه أبدًا. يوصي الله تعالى

المؤمنين ﴿وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(طه:١٣٢).. أي لا تُمدَّنَّ بصرك إلى غيرك طمعًا في مثل ما عنده من متع الدنيا، فإنك لا تعلم ما إذا كان ما عنده نافعًا لك أم ضارًّا. فمن المحتمل جدًّا أن تجد مثل ما عنده فيسبّب لك الأذى. مما لا شك فيه أنه يجوز لمن عنده عشرة بلايين من المال مثلا أن يدعو الله تعالى ويقول: رب إني بحاجة إلى المزيد من فضلك، ولكنه لو كان يملك عشر روبيات فقط ولا يزال يشعر بالقلق والكرب لأن غيره يملك مئة روبية، ثم يأخذ بالشكوى من الله تعالى، فهذا غير مناسب أبدًا. فيجوز للمرء أن يسأل الله تعالى المزيد من فضله ومن نعمه، ولكن يجب ألا يشعر بالقلق والعتاب على الله بما هو فيه، ولا يظنن أن الله تعالى قد جعله أدنى مقاما من غيره.

لقد كتب صاحب كتاب " المثنوي الرومي" حكاية بأن أحدًا من الحُواة أمسك بحيّة لم توجد مثلها عند أقرانه، فكان يحرص عليها حرصًا شديدا ويعتز بها أمام أصدقائه كثيرًا. وذات ليلة لم يُغلق الوعاء الذي كان يحفظها فيه، فهربت فلم يجدها في الصباح. فحزن على فقدها حزنًا شديدًا، وأخذ يدعو الله تعالى أن يعيد له الحيّة. وبعد دعاء كثير فتح الوعاء ثانية آملاً أن تكون الحية قد رجعت إلى مكانها، ولكن بدون جدوى. فظل يدعو الله تعالى طوال النهار والليل، وفي الصباح جاءه شخص وقال له: تعال نذهب إلى بيت فلان فقد دخلت في بيته حية فريدة من نوعها ولدغته فمات، وقد جاء الحُواة وقبضوا عليها، وهم في انتظارك. فلما ذهب وجد أنها حيته التي هربت منه، والتي كان يدعو الله تعالى منذ أربع وعشرين ساعة أن يرجعها إليه.

فيبدو أن صاحب الحيّة كان يتمتع بشيء من الخير والصلاح، فكان الله تعالى يحبه، فجعل الحيّةَ تفرّ من عنده إلى غيره، فحاول هذا الشخص القبض عليها، فلدغته، فمات. فلما رأى صاحب الحيّة هذا المشهد خرّ ساجدًا أمام الله تعالى وقال: ربّ، كنت أظن أنك لم تستجب لدعائي، ولكنك قد أجبته في الواقع، إذ كان فقدي الحيّةَ فضلاً ورحمة لي. (المثنوي الرومي (فارسي) دفتر ثان)

إذًا، فهناك آلاف الأماني التي يتمناها المرء وتكون ضارة به في الواقع. فمثلا يتمنى المرء الأولاد، ولكنهم يكونون في بعض الأحيان سيئين ويسببون وصمة عار للآباء، فيبكون برؤية حالهم. لا شك أن والدَي نبيّنا ﷺ قد دَعَوَا الله تعالى عند زواجهما بأن يعطيهما ولدًا من فضله، ولكن والدته ﷺ كانت من أسرة فقيرة، و لم يكن والده ﷺ أيضا من أسرة ثرية، فلا شك أن زواجهما قد تم بإنفاق بسيط و لم يحضره إلا بضعة أفراد. وعلى النقيض يمكن أن تقدر كيف كان زفاف والد أبي جهل؛ لا شك أنه كان زواجًا مشهودًا مشهورًا حيث قُدّم فيه لأهل مكة لحوم الإبل شواءً لعدة أيام، ولكن هذا الزواج الشهير أنتج أبا جهل، أما الزواج الآخر الذي تم في صمت قد أنتج محمدًا رسول الله ﷺ. لا جرم أنه عند زواج والد أبي جهل كان الناس يقولون بعضهم لبعض منبهرين: كم هو مبارك هذا البيت! بينما كانوا يترحّمون على حالة والد النبي ﷺ يوم زفافه قائلين: ما أشد أهل هذا البيت فقرًا! ولكن لم يتخيل أحد منهم أن البيت الذي يعدّونه مباركا سوف يتسبب في هلاك العرب، وأن صاحب البيت الآخر الذي يترحمون عليه سيؤدي زواجه إلى ولادة شخص لن ينقذ العرب من الهلاك فحسب، بل سيكون رحمة وبركة للعالم أجمع.

فثبت أن المرء لا يعلم أن ما يسأل اللهَ تعالى هو نافع له أم ضار، إنما علمه عند الله فحسب؛ وما دام علم المرء محدودا لهذه الدرجة، فكيف يحقّ له أن يشكو الله، أو يعتبر ما أعطاه الله تعالى ضارًّا به؟ نعم، إن من حق المرء أن يدعو الله تعالى كما دعا موسى عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(القصص:٢٥)، فإذا أعطاك الله مئة مليون فيمكنك أن تقول: رب إنني فقير إلى عشرات البلايين، ولكن لا يحق لك أن تقول لربك: لقد ظلمتني وألقيتني في العناء والضيق، لأن هذا نكران لنعم الله تعالى وهو غير جائز.

والصفة الإلهية الثالثة التي قد نبّهنا الله إليها في هذا المقطع هي صفة "المجيد"، ومعناها أن الله تعالى ذو مجد عظيم. وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى في موضع آخر من القرآن الكريم حيث قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(الرحمن:٣٠).. أي أن

الله تعالى يتجلى كل حين بشأن جديد، ويُظهر دائمًا من آياته ما يكشف للدنيا مجده العالي والرفيع. ذلك لأنه من الواقع أن الإنسان لا يتمتع كثيرًا برؤية شيء قد رآه من قبل، لأن الله تعالى قد أودع فطرتَه حُبّ الجديد، فيريد أن تنكشف عليه مشاهد جديدة. وعلى سبيل المثال، لما اختُرع القطار اعتبره الناس أعجوبة من العجائب، فكانوا يزينونه بالورود والأزهار، ولكن فتر حماسهم بمرور الوقت. ثم لما اختُرعت الطائرات وغيرها من المراكب الجديدة توجّه الناس إليها منبهرين. فثبت أن فطرة الإنسان تجد المتعة في كل ما هو جديد وتطمئن إلى كل ما هو فريد من نوعه، لأنه عندما يرى شيئًا جديدًا تتولد في نفسه أمنية جديدة، فيظن لعله سيشاهد مشهدا جديدا؛ وتلبية لهذه الرغبة الفطرية فيه قد خلق الله تعالى فصولا مختلفة وأثمارا متنوعة، ولهذا السبب نفسه تجد الإنسان يغيّر لباسه حينًا ومكانه حينًا، ويعدّ أطعمة جديدة كي تجد فطرته السكينة والمتعة بالشيء الجديد. لا شك أنني أجد في قراءة القرآن حظًا كبيرًا، ولكن عندما يهمس الله تعالى في أذني شيئًا بالليل فلا تسأل عن المتعة التي أجدها، وليس ذلك إلا وفقًا للمقتضى الفطري بأن الشيء الجديد يملأ القلب لذة وسرورا.

مجمل القول إن الإسلام يخبرنا أن إلهكم مجيد، حيث يتجلى دائمًا بقدرته المتجددة التي تدلّ على عظيم مجده وعلو شأنه. فمن مشاهد قدرته المتجددة دائمًا أن اليهود لما قاموا بتأليب كسرى فارس على النبي ﷺ، كتب إلى واليه على اليمن يأمره بإلقاء القبض على من ادّعى النبوة بين العرب ويبعثه إليه. فأرسل حاكم اليمن شرطته إلى النبي ﷺ وأمرهم أن يقولوا للنبي ﷺ نيابة عنه: إني لا أعرف جريرتك، ولكن الأفضل لك أن تنطلق إليّ معهما، وإلا سيزحف كسرى بجنوده على العرب، ويخرّب البلاد كلها. فلما قدموا على النبيّ ﷺ وطلبوا منه المسير معهم قال النبي ﷺ لهم: ارجعوا حتى أجيبكم غدًا. فمكثوا يومين وجاءوه في اليوم الثالث، فأمرهم بالانتظار ليوم آخر. فلما التقوه في صباح اليوم التالي قال لهم النبي ﷺ: اذهبوا وقولوا لواليكم، إن ربي قد قتل ربَّه البارحة. فأخذتهم الحيرة من قوله ﷺ والتمسوا منه الانصراف معهم، ولكن النبي ﷺ قال لهم: لقد أجبتُكم، فاذهبوا

إليه بجوابي. فلما رجعوا إليه وأخبروه الخبر قال: إما أن هذا الشخص مجنون أو نبي صادق. فلننتظر بضعة أيام لنرى هل يتحقق ما قاله أم لا! وبعد أيام قلائل رست بميناء اليمن سفينة نزل منها سفير فارسي حاملا معه رسالة إلى والي اليمن. فلما رأى الوالي الرسالة وجدها مختومة بختم ملك جديد، فقال لحاشيته: يبدو أن ما قاله نبي العرب حقّ. ثم فتح الرسالة فإذا هي من شيرويه ابنِ كسرى، حيث قال فيها: كان أبونا ظالما غاشما. لقد عاث في البلاد الفساد، فقتلته في الليلة الفلانية واعتليتُ العرش مكانه، فعليك أن تأخذ من أهل مملكتك إقرار الطاعة لي. وقد علمتُ أيضا أن من مظالم أبي أنه كتب إليك أن تلقي القبض على نبي العرب وتبعثه إليه، ولكنا قد ألغينا هذا الأمر. (الطبري: مجلد ٣ ذكر خروج رسل رسول الله ﷺ إلى الملوك)

فترى أن كسرى أراد إلقاء القبض على النبي ﷺ ومعاقبته ليُهينه في العالم، ولكن الله المجيد قد زاده ﷺ مجدًا وعظمةً وأهلك كسرى بيد ابنه.

كان حضرة الخواجا "نظام الدين أولياء" من كبار الصلحاء في دهلي، فأخذ الملك المعاصر له "غياث الدين تغلق" في معاداته. وكان الملك يريد المسير إلى البنغال لحرب، فقال لحاشيته: سأعاقب هذا الشخص بعد عودتي من الحرب. فلما بلغ ذلك مريدي الخواجا، حضروا إليه قلقين وقالوا له: علينا أن نتشفّع إلى الملك بواسطة بعض حاشيته المقربين. فأجاب حضرته باللغة الفارسية: "هُنُوْز دِلِّي دُوْر اَسْت"، ومعناه: أن عاصمته دهلي لا تزال بعيدة عنه؛ إنه لم يخرج من دهلي بعد و لم يخرج لحرب العدو بعد، فعلامَ القلق من الآن؟ فلما انقضى أسبوع أو أكثر حضره المريدون وقالوا: لقد مضت عشرة أيام على تهديد الملك وقد خرج للحرب أيضا، فعلينا معالجة الأمر الآن. ولكن حضرته أعاد جوابه وقال: "هنوز دلي دور است". وأخيرًا جاء الخبر بأن الملك قد انتصر في الحرب، وأنه عائد إلى دهلي، فهرع إليه المريدون في قلق وذعر وأخبروه بأن الملك عائد، فأجابهم: "هنوز دلي دور است"، فهو لا يزال على مسافة أربع مئة ميل عن دهلي، فأي داع للقلق؟ فلما اقترب الملك أكثر رجع المريدون إلى حضرته وقالوا: لقد اقترب الملك من دهلي جدًا! فأعاد قوله: "هنوز دلي دور است". فلما اقترب أكثر جاء المريدون إلى

حضرته في كرب شديد، ولكنه أعاد لهم نفس الكلام: "هنوز دلي دور اســـت". وأخيرًا علم الناس أن الملك وجنوده قد عسكروا خارج أسوار مدينة دهلي، فجاءه المريدون مسرعين وقالوا ها قد وصل إلى أسوار المدينة، فقال حضرته: "هنوز دلي دور است"، إنه لا يزال خارج أسوار المدينة و لم يدخلها، فلماذا نقلق؟ وأقام ولي العهد في تلك الليلة مأدبة ملكية عظيمة احتفالا بالانتصار اشـــترك فيهـــا الآلاف، فأكلوا ورقصوا وغنّوا. وقد أقيمت المأدبة على سطح قصر كبير، فـــاجتمع عليـــه أناس كثيرون، فتهدّم السقف فجأة، فمات الملك مع حاشيته مدفونًا تحت أنقـــاض السقف. وفي الصباح لما بلغ نعي الملك حضرةَ نظام الدين أولياء قال: ألم أقل لكم: "هنوز دلي دور است". (مشاهير الإسلام (أردو) ص ١٥-١٦ - وتذكرة الأوليـــاء (أردو) الجزء الثاني ص ٣٤١-٣٤٢)

فالله تعالى ذو مجد عظيم، وكل من يقيم معه صله صادقة ينـــال المجـــد بقـــدر روحانيته ودرجته. وكما أن من صال على مجد الله وعظمتـــه عاقبـــه الله تعـــالى، كذلك من صال على المقربين عنده تعالى لا ينجو من عقابه أبدًا.

لقد جاء في الدنيا آلاف الأنبياء الذين لا نعرف أسماء أكثـــرهم، وأجـــسادهم مدفونة تحت أطنان من التراب، وأممهم غير موجودة أيضا، ولكنهم كانوا مبعوثين من الله المجيد، ولذلك قد كتب لهم من المجد والعزّ ما لو أساء إليهم أحد اليوم أيضًا أتى الله لنصرتهم مسرعًا وأزال عنهم كل وصمة عار تُلصق بهم وأرسى كرامتـــهم وشرفهم ثانية.

باختصار، قد نبّهنا الله ﷻ بقوله ﴿طسم﴾ إلى ثلاث من صفاته، وهي اللطيف والسميع والمجيد، مبيّنًا أن هذه السورة تُلقي الضوء على أن الله تعالى هـــو عـــالم الأسرار، ومحسن عظيم، وسميع الدعاء، وصاحب المجد والجبروت.

وقد برهن الله ﷻ على صفاته هذه من خلال الوقائع التاريخية، فأوّل دليل قدّمه على ذلك هو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.. أي أنها آيات الكتـــاب الذي يبيّن كل حقيقة أيما بيان، مما يدلّ على أن الله تعالى الذي أنـــزله يعلم كل ما يحتاج إليه الإنسان، وأنه مطّلع على كل ما يوجد في فطرته من أسرار خفية.

ويتّضح من دراسة القرآن الكريم أن كلمة "مبين" قد وردت فيه صفةً لعدة أشياء منها: الرسول ﷺ (الزخرف:٣٠ والدخان:١٤)، والنور (النساء:١٧٥)، والفضل (النمل:١٧)، والحق (النور:٢٦)، ولكنها لم ترد فيه وصفًا لأيّة صحيفة سماوية سوى القرآن الكريم. صحيح أن القرآن الكريم قد وصف كتاب موسى بكلمة مماثلة وذلك مرة واحدة فقط، ولكنه قد استعمل لذلك لفظ ﴿المستبين﴾ حيث قال الله تعالى ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾(الصافات: ١١٨).. أي أننا قد أعطينا موسى وهارون كتابا كاملا احتوى جميع الأحكام. وهذا يعني أن القرآن الكريم قد فرّق بين فحوى كلمتي "مبين" و"مستبين"، علمًا أن كلمة "مبين" قد وردت في القرآن وصفًا له اثنتي عشرة مرة: عشر مرات وصفًا للكتاب ومرتين للقرآن. وقد تبيّن من ذلك بجلاء أن ﴿المستبين﴾ تعطي معنى الوضوح، أما ﴿المبين﴾ ففيها معنى الوضوح والإيضاح، ذلك لأن "استبان" يعني اتّضح، و"أبان" يعني اتّضح وكذلك أوضحَ. إذًا، فإن الله تعالى قد أشار بوصف القرآن بكونه مبينًا إلى ميزة خاصة له على الكتب الأخرى، وهي أن القرآن الكريم ليس بواضح في معانيه ومفاهيمه ولا يبيّن الحقائق الثابتة فحسب، بل هو مُوضح أيضًا.. أي أنه يقوم بتوضيح ما ورد في الكتب السماوية السابقة من أمور وحقائق. وهذا فضلٌ للقرآن لا يشاركه فيه أي سفر من الأسفار السابقة. لقد انحصرت مهمة الصحف الأولى السابقة في توضيح معانيها وفحواها هي وحدها، لأن كل واحد من تلك الصحف إنما نزل لشعب معين، و لم يكن يهمّه ما إذا كانت الكتب الأخرى تبدو صادقة أم باطلة، وما إذا كان الأنبياء الآخرون يبدون صادقين أم كاذبين، أو ما إذا كانت الشعوب الأخرى تبدو وارثة لنور الله تعالى أم لا. لم تتحدث تلك الكتب إلا عن نفسها فقط لكونها محصورة في نطاقها القومي فحسب، ولكن القرآن قد جاء لجمع شعوب العالم كلها على مقام واحد، فبيّن جميع الأحكام التي تخصّ الناس بيانًا تفصيليًا، ملقيًا الضوء على كل جزئية منها؛ وليس هذا فحسب، بل قد بيّن حقيقة الكتب السابقة أيضا، حيث برّأ ساحة الأنبياء السابقين من التهم الملصقة بهم، ونزه الكتب السابقة عن المطاعن، وكل ذلك بالدلائل والبراهين، فتارة بالإشارة إلى تطوّر الفطرة الإنسانية،

وحينًا إلى التحريف الذي تعرّضت له الأسفار السابقة بأيدي الناس، أو أحيانًا إلى اجتهاداتهم الخاطئة.

إذًا، فالقرآن الكريم قد بيّن محاسن الأنبياء السابقين والأسفار السابقة والأمم الخالية، كما برّأهم وكتبهم من التهم، وهكذا قد ارتقى من درجة "المستبين" إلى درجة "المبين". فمثلاً قالت التوراة إن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر إلى كنعان كان عدد شبابهم البالغين سن العشرين والصالحين للحرب ستمئة ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة، وذلك ما عدا شباب السبط الثاني عشر (الخروج ٢: ٣٢). وإذا أضفنا إلى هذا العدد شباب السبط الثاني عشر أيضًا صار عدد المحاربين بين بني إسرائيل حوالي ستمئة ألف وخمسين ألفا. ولو جعلنا هذا العدد عشرة أضعاف لمعرفة العدد الإجمالي لبني إسرائيل بما فيهم النساء والولدان والشيوخ – حيث إن ما بين ستة إلى عشرة بالمئة من القوم يكونون صالحين للأعمال الحربية عمومًا – بلغ هذا العدد ستة ملايين. ولكن العقل يرفض أن يكون بنو إسرائيل بهذا العدد الضخم وقت خروجهم من مصر. فأوّلاً من المحال أن يخرج هذا العدد الهائل من البشر من مصر في تلك الفترة القليلة، وثانيًا أن القرية التي سكنوا فيها بعد عبور نهر الأردن لا يمكن أن تستوعب هذا العدد الضخم من الناس! فإن عدد سكان فلسطين لا يتجاوز اليوم أيضًا مليونًا ونصف مليون♦، وذلك مع وجود اليهود الذين قد أتوها من الخارج واستوطنوها بمساعدة أمريكا. إذًا، فمما يخالف العقل أن يأتي ستة ملايين شخص ليسكنوا هذه البلاد التي كانت مسكونة سلفًا. فثبت أن العدد الذي ذكرته التوراة لبني إسرائيل غير مقبول عقلاً! ولكن القرآن جاء فأخبر أن هذا البيان مغلوط، إذ لم يكن عددهم إذّاك إلا بضعة آلاف. قال الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾(البقرة:٢٤٤). إذًا، فالتوراة زعمت أن

♦ أي في وقت كتابة التفسير. (المترجم)

بني إسرائيل كانوا عدة ملايين وقت خروجهم من مصر، ولكن القرآن الكريم قام بتصحيح خطأ التوراة وأخبر بأنهم لم يكونوا ملايين بل آلافًا.

وكان سليمان عليه السلام من أنبياء الله الأطهار، ولكن التوراة وصمته بالشرك حيث ورد فيها: "ولما كان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملنَ قلبَه وراء آلهة أخرى، و لم يكن قلبه كاملاً مع الرب" (الملوك الأول ١١: ٤)، وورد فيها أيضًا: "فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين، وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتّبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب." (الملوك الأول ١١: ٩-١٠). وهذا يعني أن سليمان عليه السلام قد بلغ في الكفر -حاشا لله- درجة أنه برغم أن الله تعالى قد ظهر له مرتين ونهاه مرتين عن عبادة الآلهة الباطلة، إلا أن جمال أزواجه خلب لبّه حتى إنه بنى للآلهة الباطلة معابد وخرّ لها ساجدًا.

ولكن القرآن الكريم جاء فأوضح وقال ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾(البقرة: ١٠٣).. أي لم يكفر سليمان عليه السلام قط، بل الذين اتهموه بالكفر والشرك هم الذين كفروا.

والشواهد التاريخية تؤيد بيان القرآن الكريم وتدحض بيان التوراة، حيث ورد في الموسوعة التوراتية:

صحيح أن سليمان كانت له زوجات كثيرات - بعضهن إسرائيليات وبعضهن غير إسرائيليات - ولكنه لم يصنع لهن أية مذابح، كما لم يشرك في عبادة الله تعالى أيَّ إله من آلهة زوجاته. لقد كان من المحال لسليمان أن ينكر وحدانية الله تعالى حتى في التصور والخيال. (الموسوعة التوراتية المجلد الرابع تحت كلمة: Solomon)

إذًا، فالتاريخ أيضا يؤكد أنه برغم أن سليمان عليه السلام قد تزوّج بالعديد من النساء اليهوديات وغيرهن، ولكن من الخطأ القول أنه بنى معابد للأصنام أو سجد لأي منها.

فترى أن التوراة تقول أن سليمان سجد للأصنام، ولكن القرآن جاء فرفض زعم التوراة، ثم إن الباحثين اليهود والنصارى أعلنوا اليوم أن بيان التوراة كذب، وأن الحق مع القرآن.

ثم تقول التوراة إن هارون عليه السلام صنع العجل لبني إسرائيل وعلّمهم الشرك حيث ورد فيها:

"ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قُمْ اصْنَعْ لنا آلهةً تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجلُ الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأْتوني بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإزميل وصنَعه عجلاً مسبوكًا، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتْك من أرض مصر." (الخروج ٣٢: ١-٤)

ولكن القرآن جاء وأعلن أن هذا افتراء مبين، فإن هارون عليه السلام قد نهى قومه عن الشرك بشدّة وقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾(طه:٩١).. أي لا تطيعوا السامري الذي يعلّمكم الشرك والوثنية، بل اتّبِعوا خطواتي أنا.

إذًا، فالتوراة تتهم هارون نبي الله الطاهر بأنه قد أشرك بالله تعالى، ولكن القرآن الذي هو "المبين" جاء وأخبر أن هذا كذب صريح، فإن هارون الذي بعثه الله تعالى لم يزل يدعو قومه إلى وحدانية الله تعالى، ولكنهم اتبعوا السامري لشقاوتهم، وأخذوا يعبدون العجل.

أما عيسى عليه السلام فقد اتهمه اليهود والنصارى بتهم خطيرة، ولكن القرآن الكريم دحضها وبيّن أنها ليست إلا افتراء عليه من قبل أعدائه. فمثلاً قال اليهود أن المسيح (عليه السلام) وُلد نتيجة الفاحشة – والعياذ بالله.. أي أنه وُلد من بطن مريم بنطفة يوسف قبل زواجهما. (الموسوعة البريطانية المجلد الخامس ص تحت كلمة: "Celsius"). وكذلك زعم اليهود أن المسيح ابنٌ لجندي روماني اسمه "بنثيرا" – معاذ الله – حيث كانت له علاقة غير شرعية مع مريم. (الموسوعة اليهودية المجلد السابع تحت كلمة: Birth of Jesus)

ولكن القرآن الكريم قد برّأ ساحة السيدة مريم من هذه التهمة معلنًا: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً

لِّلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:٩٢).. أي أن مريم الصدّيقة والدةَ المسيح قد حفظت جميع منافذها من الإثم، وأن حملها لم يكن حملا غير مشروع، بل حملت بروح طاهرة نفخناها فيها، وجعلناها وابنها عيسى آية للعالم كلّه.

كذلك يتّهم النصارى المسيح عليه السلام بأنه مات معلّقا على الصليب ميتة ملعونة – والعياذ بالله – حيث ورد في العهد الجديد قول بولس: "المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنةً لأجلنا، لأنه مكتوب: ملعونٌ كل مَن عُلّق على خشبة". (غلاطية ٣: ١٣).

وهذا يعني أن المسيحيين قد اعتبروا عبدًا من عباد الله المقرّبين ملعونا تحقيقًا لأهواء أنفسهم، ولكن القرآن الكريم فنّد هذه التهمة بلسان المسيح نفسه حيث قال ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(مريم:٣٤).. أي أن الذين يزعمون أن ولادتي كانت نتيجة الفاحشة إنما يفترون علي، إذ قد شملني سلام الله تعالى وقت ولادتي؛ وأن الذين يزعمون أني قد متّ ميتة ملعونة هم أيضًا مخطئون، لأن موتي أيضا سيتمّ تحت حماية الله تعالى، وأنني سوف أُنقذ من الميتة الملعونة؛ وأن الذين يظنون أنني مكثت في جهنم ثلاثة أيام كفّارةً عن آثام الآخرين هم أيضًا مخطئون، لأن حياتي الثانية ستبدأ تحت ظل سلام الله تعالى.

مجمل القول إن الله سبحانه وتعالى قد دحض في القرآن الكريم كل التهم التي كانت قد تسرّبت إلى الكتاب المقدس بأيدي الناس، وقدّم رسلَه تعالى إلى العالم مبرَّئين من كل عيب.

والهندوس أيضا قد رموا أنبياءهم وصلحاءهم بتهم مماثلة. فمثلاً قد ورد في كتبهم أن والدة حضرة "كريشنا" قالت له: "يا بُنيّ، عندي تسع مئة ألف بقرة حلوبة، فكُلْ مِن زُبدها كما شئت، ولكن لا تسرق الزبدة من بيوت الآخرين!"

(مها ريشي ويد وياس، شريمد بهاگوت مها پران دوسرا كهنڈ سكنڈه ٩-١٢)

وكذلك قالوا عنه أنه عاش مع النساء الأجنبيات منغمسًا في الملذات، وقد ذكروا اسم امرأة على وجه الخصوص وقالوا إنه أيقظها بالليل وقال: أيتها الجميلة، دَعِـــي النوم ومَتِّعيني بشبابك. (برهم دي ورت، بران كريشن جنم، كهنڈ ٤ أدهياء ٧٢)

ولكن القرآن الكريم قد ذكر حضرة كريشنا وغيره من الأنبياء الكثيرين الذين لم تبق أسماؤهم أيضا محفوظة في صفحات التاريخ ذكرا إجماليا، وقـــال ﴿أُولَـــئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(الأنعام:٩١).. أي أن جميع هؤلاء القوم قد هـــداهم الله تعالى أي كانوا من المُنعم عليهم الذين ورثوا أفضال الله ونصرته، فمن واجبك الآن أن تتبع خطواتهم وتسلك نهجهم.

لقد تبيّن من ذلك أن القرآن الكريم يعتبر جميع الأنبياء معصومين من الخطـــأ، ويدحض كل تهمة رُموا بها سواء من قبل المنافقين أو من المعارضين. إنه يزيل كل غبار عن وجوههم الجميلة الطاهرة ويجلو نورهم أكثر فأكثر. وهي منّة عظيمة من القرآن الكريم لا يوجد لها نظير في أي سفر من الأسفار الموجودة في العالم.

ثم إن القرآن الكريم قد أكّد أنه "مُبين" من حيث إنه قد عمل على إرساء كرامة كل نبيّ في الدنيا، وفرض على أتباعه الإيمان بهم أجمعين. لو فحصنا أحوال أي بلد لعلمنا أن أهلها يؤمنون ببعض الصلحاء والأبرار من قومهم حتمًا، ولكنهم يظنون أن الصلحاء لم يوجدوا إلا في قومهم فقط. فمثلا يؤمن أهل الهند بـــأن حـــضرة كريشنا وحضرة رام شندر جي كانا من "أوتار" أي من الأنبياء، ولكنهم يقولـــون أيضا أنه لم يبعث أي نبيّ سواهما في أي بلد آخر. وكذلك يقول النصارى واليهود وغيرهم أن أنبياءهم هم وحدهم الصادقون، أما غيرهم ممن ادّعوا النبـــوة فكلـــهم مفترون كذابون. ولكن القرآن الكريم جاء فأعلن ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خـــلا فِيهَـــا نَذِيرٌ﴾(فاطر:٢٥).. أي ليس هناك قوم إلا وقد بُعث فيهم مصلح أو هاد. وعندما نفحص تاريخ الأمم نعلم أنها كلها تؤمن بمجيء مصلح ما بينهم. فنجد في تـــاريخ الهندوس مثلا أن حضرة كريشنا وحضرة رام تشندر جي قد بُعثا إليهم، وعنـــدما ننظر إلى المسيحيين نجد بينهم المسيح، وحينما نرى اليهود نجد بينهم موسى وغيره

من الأنبياء الكثيرين. وباختصار لا توجد بقعة من بقاع العالم لم يُبعث فيها نبيّ من الأنبياء. ذلك لأن الله ﷻ كما هو إله الجزيرة العربية، فهو إله الهند والصين والشام ومصر وإيران وغيرها من الأقطار والبلاد. لقد خلق الله الشمس والقمر والنجوم للعالم كله على السواء، وجعل الأرض للناس جميعا، وما دام الله تعالى قد سدّ الحاجات المادية للناس كافة، فكيف يمكن أن يهمل سدّ حاجاتهم الروحانية؟ مع أن الحفاظ على الروح أهم من الحفاظ على الجسم، لأن الجسم فانٍ، والروح غير فانية. فالمسلم عندما يقرأ هذه الآية يتمنى أن يتأكد من تحققها، فيذهب إلى الهندوس ويسألهم متوجِّسًا: هل بُعث في قومكم نبي؟ فيقولون: نعم، لقد جاءنا كريشنا ورام تشندر جي اللذان كانا من أنبياء الله في عصرهما، فيتهلل وجه المسلم سرورًا، ويقول: الحمد لله! لقد تحقق قول الله تعالى في القرآن الكريم إنه قد جاء في كل أمة نبي. ثم يذهب هذا المسلم إلى الصين ويسأل أهلها ما إذا بُعث فيهم نبي. فيذكرون له اسم "كونفوشيوس"، فيمتلئ قلبه سرورا وحبورا، ويقول: الحمد لله! لقد بعث الله نبيا في الصين أيضا حسبما قال في القرآن الكريم. ثم يصل هذا المسلم إلى إيران ويسأل أهلها: هل بعث بينكم نبي؟ فيسمّون له "زرادشت"، فلا يتمالك نفسه من الفرحة ويقول في نفسه: الآن قد تأكد صدق ما قاله القرآن أكثر. ثم يذهب إلى اليونان ويسأل أهلها: هل جاءكم أحد برسالة الله؟ فيجيبونه: نعم، لقد ادّعى سقراط في بلادنا بأن الله تعالى يكلّمه. فتزداد فرحة المسلم ويقول: الحمد لله! لقد تأكد هنا أيضا صدق كتابي القرآن الكريم. فأينما يذهب يرتفع رأسه فخرًا واعتزازًا ويمتلئ قلبه لذّة وسرورا، ويقول في نفسه: ها قد تحقق حرفيًّا ما أعلنه كتابي. ولكن المسيحي أو الهندوسي أو اليهودي حيثما ذهب اسودّ وجهه غمًّا. فإذا ذهب إلى الشرق الأوسط وسمع أن محمدًا رسول الله ﷺ كان أعظم الأنبياء قاطبة، احترق قلبه حسدًا. وإذا ذهب إلى بورما وسمع من أهلها أن بوذا كان نبيا من أنبياء الله تعالى، أخذ هذا اليهودي في البكاء والنياح. وعندما يسمع من أهل الهند أن كريشنا كان نبيًا يصاب اليهودي بالجنون، وعندما يذهب إلى اليونان ويعرف من أهلها أنه كان في هذه البلاد نبي باسم سقراط يأخذ في الصراخ. فأينما

ذهب عانى الأمرّين، ولكن المسلم أينما ذهب سر وفرح، وزاده هذا التعليم القرآني في كل بلد رفعةً وعزًّا. إذًا، فبرغم أن هذه الآية وجيزة، إلا أنك لو تجولت في العالم كلّه مؤمنا بها فلن ينقبض قلبك لدى سماع عظمة أي نبيّ في أي بقعة في العالم، بل ستعترف بأن القرآن قد برهن على فضله على جميع الصحف الأخرى بتقديم هذا المبدأ.

ثم إن بعض الديانات قد قدّمت نظرية خاطئة عن النفس الإنسانية، التي هي مهبط وحي الله تعالى وأنواره وبركاته، حيث تزعم بعض الأديان أن الإنسان آثم بفطرته وطبعه، ذلك لأن آدم وحواء ارتكبا معصية الله تعالى مما أدى إلى ولادة الإنسان آثما بفطرته. كما زعمت بعض الديانات الأخرى أنه من المستحيل على الإنسان أن يتطهر مهما يبذل من الجهد، ولذلك تُلقى روحه في سلسلة من الولادات المختلفة المتكررة التي لا نهاية لها. النظرية الأولى تقدمها المسيحية (رومية ٥: ١٢)، أما النظرية الثانية فتقدمها الهندوسية (أنوار حقيقت (ترجمة أردية لستيارث بركاش) الباب التاسع ص ٢٤٧-٢٤٨)، حيث اعتبرت كلتا الديانتين فطرة الإنسان نجسة غير طاهرة، وقد روّجوا لهذه النظرية الخاطئة لدرجة أن هذا الإنسان الذي خُلق ليحظى بقرب الله تعالى وليتخلّق بالأخلاق السامية وليتحلّى بالروحانية العالية حتى يكلّمه الله ويكون مهبطًا لوحيه، قد استولى عليه اليأس كلية، فقال في نفسه: ما دامت طرق الرقي مسدودة في وجهي وما دمتُ قد خُلقت نجسًا غير طاهر بفطرتي، فمن المستحيل أن أتطهر. ذلك لأن من فطرة الإنسان أنه إذا سمع أمرًا بصورة متكررة متتالية، خضع لتأثيره بالتدريج. فمثلا لو قيل لأحد مرارا: إنك غبيّ وبليد، فإنه بالفعل يصبح بليدًا شيئًا فشيئًا، ولو قيل للمرء إنك ابن سارق، رسخت هذه الفكرة في قلبه رويدا، وكلما طمع في مال غيره وأراد أن يسرقه، لم يستطع مقاومة فكرته الشريرة، بل قال في نفسه: ما دام الناس يقولون إنني ابن سارق، وما دمت مفطورًا على الشر جيلا بعد جيل، فلماذا أمتنع عن تنفيذ رغبتي؟ ومن أجل ذلك قد استنكر النبي ﷺ مثل هذه الأمور بشدّة واعتبرها سببًا لهلاك الأمم ودمارها، لأن العقلية الإنسانية إذا أُخضعت لتأثير معين ووُجّهت إلى جهة معينة خضعت لذلك التأثير شيئًا فشيئًا. والحق أن علم النفس نشأ على يد النبي ﷺ والقرآن الكريم، حيث قال ﷺ: "إذا قال الرجل هلَك الناس فهو أهلَكَهم." (مسلم: كتاب البر

والصلة، باب النهي عن قول هلك النـــاس). ذلك لأنه إذا قيل لقوم بالتكرار أنهم قد هلكوا فقدوا قوة المقاومة، وأخذوا في التردّي والانحطاط. لقد قالت المسيحية للنـــاس إن آدم أخطأ، وانتقلت خطيئته في ذريته بالوراثة، ولا يستطيع الناس أن ينجـــوا مـــن الخطيئة ولو أرادوا ذلك. وبعد هذه العقيدة المسيحية، كيف يمكـــن لمـــسيحي أن يقاوم الإثم عندما تغزوه فكرته؟ كلا، إنما يقول: لا أستطيع مقاومة الإثم ولا يمكن أن أنجو منه. وعندما يترك مقاومة الإثم فلا بد أن يقع فيه. ولكن القـــرآن الكـــريم أخبر أن الإنسان قد أُعطي فطرة سليمة، وأنه مهما تردّت حالته فـــإن بوســـعه أن يرتقي ويحظى بقرب الله تعالى إذا حاول ذلك حيث قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْـــتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٧). فإنك ترى أن الله تعالى لم يقل هنا "وما خلقتُ آدم إلا ليعبدني"، بل قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾.. أي لقد خلقتُ الناس كلهم لعبادتي ولقربي سواء أكانوا ذوي فطرة نارية مشاكسة أو من أصحاب الفطرة الطينية المطيعة؛ علمًا أن المراد من الإنـــس قـــوم يميلـــون إلى الطاعة، أما الجن فهم قوم غطّتهم الغشاوة.. أي قد حُجبـــت فطـــرتهم الـــسليمة وصاروا بعيدين عن الله تعالى. إذًا، فكأن الله ﷻ يقول هنا: حتى أصحاب الطبائع النارية المائلين إلى الإثم قد خلقتُهم لعبادتي، لأن طبعهم الناري طبعٌ ثانوي ولـــيس بطبع أصلي؛ ذلك أن الإنسان له طبعان؛ الطبع الأول الأصيل الذي فُطـــر عليـــه وجُبل، والطبع الثانوي الذي يتولد فيه نتيجة تأثير محيطه ويتغلّب على طبعه الأول. وقد سمّي أصحاب الطبع الثانوي جنًّا، أي أن فطرتهم الأولى الأصلية تصبح محجوبة تحت الغشاوة، فلا نستطيع أن نراها؛ وحيث إننا لا نرى فطرتهم الأولى فنـــسمّيهم جنًّا. إن الناس إذا ثبتوا على الخير والصلاح لفترة طويلة وعاشوا بحسب مشيئة الله تعالى سُمّوا إنسًا، وإذا غفلوا عن تعاليم نبيّهم أصبحوا جنًّا؛ ذلـــك لأن فطـــرتهم السليمة تصبح محجوبة مستورة لدرجة أنهم ينسون الغاية من إنشاء جماعتهم وإقامة نظامهم أو ينسون التعليم الذي أتى به نبيّهم. فالله تعالى يقول هنا: لقـــد خلقنـــا لعبادتنا كلا الفريقين: الإنس والجن.. أي أولئك الذين قـــد أصـــبحت فطـــرتهم الصحيحة في غطاء وتغلبت عليهم الفطرة الثانوية حتى بدا وكأن فطرتهم الثانويـــة

هي فطرتهم الأولى، فصاروا من الجنّ.. أي من المحجوبين عن الله تعالى، وكذلك أولئك الذين يميلون بطبعهم إلى الخير، ولا تزال جذوة حب الله تعالى متّقدة في قلوبهم. يقول البعض كيف يمكن أن ننصح فلانًا؛ فهو خال من الخير تماما؟ بينما يقول البعض الآخر لا يمكن أن يهتدي فلان لأنه عنيد متعصب، ولكن الله تعالى يقول: لا تقولوا هكذا. إنكم تقومون بهذا الاستنتاج الخاطئ ناظرين إلى طبيعته الثانية، في حين أن طبيعته الأولى مائلة إلى الخير، إذ لم نخلق الجميع إلا لعبادتنا. فإذا كانت الفطرة السليمة لأحد في حجاب فمثله كمثل شخص يسقط في جرّة مليئة بـ "النيلي"، فيصبح كله أزرق اللون، ولكن هذا لا يعني أنه لم يعد إنسانا. أو مثله كمثل شخص لبس جلد الدبّ، فيخافه الرائي ويفرّ منه، بينما هو إنسان في الحقيقة. هذا هو مثل القوم الذين تصبح فطرتهم مشوهة ممسوخة بتأثير محيطهم، وتصبح صورهم الظاهرة كصور الجنّ. فحتى أولئك الذين يؤمنون بوجود الجنّ غير المرئيّين ويعترضون علينا نحن الأحمديين بأننا لا نؤمن بالجن، هم أنفسهم يطلقون أحيانًا اسم الجنّ على من أصبحت فطرته محجوبة في الظلمات، ويسمّون من فسدت أخلاقه ذئبًا، ولا يعنون أنه قد صار ذئبا في الواقع، وإنما مرادهم أنه قد غلبت عليه طبيعة الذئاب. وكذلك يسمون البعض ثعبانًا ويقولون إنه يلدغ كالثعبان، أو يسمّون البعض عقربًا ويقولون إنه يلدغ لدغ العقارب. فثبت من ذلك أن الفطرة الثانية للبعض تتغلب على فطرته الأولى الأصيلة أحيانًا حتى لا نكاد نجد فيه خصال الإنسان، ولكن عندما تلوح فطرته الصحيحة ندرك أنه لا يزال فيه الصلاح والخير. فمثلاً إنك تعلم مدى عداء معارضي الرسول ﷺ له، ولكن حين حصل فيهم انقلاب مذهل لم يصلحوا أنفسهم فحسب، بل بلغوا في الروحانية درجةً عاليةً بهرت العقول. فمثلاً كان عمر رضي الله عنه شديد العداء للإسلام والمسلمين، ولكنه حين أسلم حصل فيه انقلاب عظيم، فأخذ يُلقي نفسه في المشقّة والعناء من أجل راحة الآخرين ومنفعتهم، وظل يخدم الإسلام ليل نهار. وهكذا كان حال عكرمة رضي الله عنه. فلما فتح النبي ﷺ مكّة فر عكرمة منها إذ كان يبغض النبي ﷺ بغضا شديدًا، فقال لن أعيش في بلد يوجد فيه هذا الشخص. وكان النبي ﷺ قد

أمر بقتله حيثما وُجد لما ارتكب من فظائع بشعة، وقال: إنني لن أعفو عنه! فجاءت زوجته إلى النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله، أنت رحيم وكريم وقد عفوت عن كثيرين، ولو عفوت عن عكرمة فلن يضرّك هذا شيئًا. وأضافت قائلة: يا رسول الله، هل تفضّل أن يعيش عكرمة في بلد غير بلدك ذليلا مهانًا أم أن يعيش في بلدك كأحد رعاياك مفتخرًا بعفوك عنه؟ فأعجب النبي ﷺ قولها فقال: لقد عفونا عن عكرمة. فخرجت زوجته بحثًا عن زوجها الذي كان قد وصل إلى البحر وركب سفينة متّجهة إلى الحبشة. فوصلت إليه زوجته وقالت له: أين تذهب! تعال ارجعْ، لقد استعطفتُ محمدًا ﷺ من أجلك، وقد عفا عنك. فتحيّر عكرمة من قولها وقال: كيف يمكن أن يعفو عني محمد وقد ارتكبت جرائم بشعة؟ فقالت: إنك لا تعرف مدى حلمه وعفوه. صدِّقْني أني قد طلبت منه العفو عنك فعفا عنك، فتعال وارجع معي. فنزل عكرمة من السفينة ورجع مع زوجته. وعندما حضر الرسولَ ﷺ قال: يا رسول الله، لقد أخبرتني زوجتي أنها قد استعطفتك من أجلي فعفوت عني، فهل هذا صحيح؟ فقال الرسول ﷺ: نعم، هذا حقّ، فقد عفونا عنك. قال: فهل تسمح لي أن أعيش في مكّة وأنا كافر بك؟ قال النبي ﷺ: نعم، يمكنك أن تعيش هكذا. فلمّا علم عكرمة بأن النبي ﷺ قد عفا عنه رغم ما ارتكبه هو ووالده أبو جهل من مظالم متكررة وجرائم بشعة، وسمح له بالعيش في مكّة بحرية تامّة سواء اعتنق الإسلام أم لم يعتنقه، تأثرَ من هذه المعاملة تأثرًا كبيرًا، وقال: يا رسول الله، ها أنا أدخل في الإسلام على يدك، فإني أرى أن مثل هذا العفو لا يمكن أن يصدر إلا من إنسان بارّ قد اصطفاه الله تعالى فعلاً. (السيرة النبوية لابن هشام: ذكر الأسباب الموجبة للمسير إلى مكة- وأُسد الغابة: عكرمة بن أبي جهل)

فترى كيف حصل انقلاب عظيم في قلب عكرمة؟ فقد كان يبغض النبي ﷺ من قبل لدرجة أنه يكره العيش في بلد يعيش فيه النبي ﷺ، ولكن حين قال له النبي ﷺ: إنني لا أعفو عنك فحسب، بل أريد مكافأتك أيضا، فسلْ ما بدا لك! قال عكرمة الذي كان ميّالا إلى الدنيا من قبل: يا رسول الله، إني لا أسألك إلا أن تدعو لي بأن يغفر الله لي كل ما سبق مني من الذنوب (المغازي للواقدي). فشتان بين أن يهرب

عكرمة من مكة وبين أن يدخل في الإسلام ويحدث فيه هذا الانقلاب المفاجئ العظيم حيث يتخلى عن العداوة كلية. كان يحارب النبي ﷺ من قبل، ولكنه بلغ بعد ذلك من الفداء والتضحية للإسلام لدرجة أنه لما استُشهد كثير من الصحابة في واقعة اليرموك أخذ عكرمة معه جماعة من الفتيان وذهب إلى أمير الجيش المسلم أبي عبيدة وقال له لا أستطيع رؤية موت صحابة الرسول ﷺ في القتال هكذا. من ذا الذي سيقوم بنشر الإسلام إذا قُتل هؤلاء القوم اليوم؟ فاسمح لنا نحن الفتية أن نخرج حاملين أرواحنا على أكفّنا لنهاجم قائد الجيش المسيحي ونقتله، لتنتهي الحرب. فقال أبو عبيدة: هذا عمل صعب! كيف يمكن أن أبعثكم لمحاربة جيش قوامه مليون محارب؟ فإنكم ستهلكون حتمًا. فأشار عليه باقي المسلمين: اسمح لهم بما يريدون ما داموا يتطوعون بهذه التضحية عن طيب خاطر. وبما أن كثيرا من الصحابة قد استُشهدوا في هذه المعركة فسمح لهم أبو عبيدة بهذه المخاطرة. فشن عكرمة مع هؤلاء الفتية الهجوم على قلب الجيش المسيحي ووصلوا إلى قائدهم "ماهان"، فأصابه الذعر الشديد ولاذ بالفرار، فحصلت الفوضى في جنوده وانتهت الحرب بفوز المسلمين. لكن عكرمة رضي الله عنه وفتيانه كلّهم تقريبًا قد استُشهدوا في هذه الحملة.

ومن وقائع هذه الحرب أن عكرمة رضي الله عنه أُصيب بجراح شديدة وأخذ يضطرب من شدة الألم والعطش، فمرّ به مسلم يحمل قربة ماء، فلما رأى عكرمةَ رضي الله عنه في كرب اقترب منه وسأله: هل أنت عطشان؟ قال: نعم. فقدّم القِربة إلى فمه ليسقيه، وما إن وضع عكرمة فاه على فم القربة حتى وقع بصره على الفضل بن العباس الذي كان يضطرب قريبا منه من شدة العطش، فقال للساقي: إن الفضل أشد ظمأ مني فاسقِه قبلي. فلما وصل الساقي إلى الفضل وجد الفضل مسلمًا آخر يضطرب على مقربة منه فقال للساقي: إن أخي هذا أشد عطشًا مني، فاسقه أولاً. فلما وصل الساقي إلى الثالث، أشار هذا إلى الرابع، ولما وصل إلى الرابع أشار إلى الخامس أن اسقه قبلي. ويذكر التاريخ أن هؤلاء الجرحى كانوا سبعة وكانوا جميعهم يضطربون من شدة العطش، ولكن كل واحد منهم قال للساقي: لا تسقني الماء بل اسق

صاحبي قبلي. ولما وصل الساقي إلى الجريح الأخير وجده قد فارق الحياة. ولما رجع للآخرين ليسقيهم وجدهم أيضًا قد استشهدوا كلهم.*

فترى كم هي عظيمة هذه التضحية التي قدّمها عكرمة رغم عدائه الشديد ضد الإسلام من قبل. إذًا، فمن الخطأ الفاحش أن يقال عن أحد أنه لن ينال الهدى. كلا، بل إذا أراد الله تعالى الهداية لأحد هداه في لمح البصر. وهذا هو المعنى الذي بيّنه الله ﷻ في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات: ٥٧).. أي أنه تعالى قد خلق كل واحد ليهديه وينعم عليه بقربه. فما أشدَّه يأسًا مَن يكفر برحمة الله تعالى، ويظنّ أن الإنسان يولد آثمًا، فلا يمكنه أن يتطهّر أو يتزكّى! إن الإسلام يعلن أن هذه النظرية خاطئة تمامًا، وأن الإنسان قد خُلق بفطرة نقية وقدرات طاهرة، وأن الله تعالى قد خلق كل واحد ليحظى بقربه.

وكذلك يقول الله تعالى في مكان آخر من القرآن الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾(الشمس: ٨-١١).. أي أننا نقدّم النفس البشرية كشهادة على أننا قد خلقنا الإنسان منزهًا عن العيوب كلها، وأودعنا فطرتَه قوةَ معرفة الخير والشر، فمن وقى روحه من الشوائب الخارجية نجح وفاز، ومن أفسد طهارته الفطرية خاب وخسر.

إذًا، فالإسلام لا يدَع الإنسان يقع فريسة للقنوط واليأس كما تفعل الأديان الأخرى، بل يشحن روحه بقوّة تحلّقه عاليًا وترفعه من الثرى إلى الثريا.

ثم إن القرآن الكريم كتاب "مبين" من حيث إنه قد بيّن آلاف الحقائق التي لا يوجد لها أي أثر في الكتب السابقة. وعلى سبيل المثال، قد ذكر القرآن الكريم أن

---

* لقد وردت هذه الواقعة في المصادر التالية مع شيء من الاختلاف: تاريخ الطبري: خبر اليرموك- وأسد الغابة: عكرمة- والكامل في التاريخ: ذكرُ وقعة اليرموك- والاستيعاب في معرفة الأصحاب: عكرمة- والبداية والنهاية لابن كثير: ذكر وقعة اليرموك. (المترجم)

فرعون غرق مع أصحابه في البحر، ولكن جثّته أُنقذت وحُفظت ليكون عبرة ونصيحة للذين يأتون بعده (يونس:٩٣)، وذلك برغم أن القرآن الكريم قد نزل بعد موسى وفرعون بحوالي مئتين وألفَي عام. وقد عثروا الآن بالفعل على جثة فرعون موسى بين المومياات القديمة، وجثته محفوظة اليوم في المتحف المصري وقد رأيتها بأم عيني. فما أعظمَها شهادةً على أن القرآن الكريم كتاب مبين، فإن التوراة التي قد نزلت في الزمن الذي غرق فيه فرعون لم تذكر أي شيء عن حفظ جثّته، ولكن القرآن الكريم جاء بعد مئتين وألفي سنة، وكشف عن هذه الحقيقة. وبعد مرور أربعة عشر قرنًا من هذا الإعلان القرآني تم العثور على مومياء فرعون بالفعل. وهكذا ثبت أن القرآن الكريم هو في الواقع كلام الله العليّ الذي هو عالم الأسرار كلها ومطّلع على الغيوب بأسرها.

ثم إن القرآن الكريم كتاب "مبين" من حيث إنه ليس بحاجة إلى الأدلّة الخارجية لإثبات صدقه، بل إنه يقدّم بنفسه البراهين على صدق دعاويه، وذلك خلافًا للصحف السماوية الأخرى التي تقدّم الدعاوي بدون أن تذكر الأدلة على صدق ما تدّعي. اقرأ التوراة من أوّلها إلى آخرها وكذلك الإنجيل والفيدا، وستجد وكأنها قد افترضت افتراضًا بأن العالم كلّه مؤمن بالله تعالى ولا أحد من الناس يشكّ في وجوده تعالى. لقد سلّطت هذه الكتب على صفات الله ﷻ ضوءا قليلا جدًا لا تشفي غليل النفس البشرية مطلقًا. وغاية ما تبيّنه تلك الكتب هو المعجزات، مهملةً تمامًا ذلك الأمر الأهم الذي هو أساس كل دين.

أما القرآن الكريم فتجده على النقيض حيث لا يقول للناس إن الله موجود فحسب، بل يسوق على ذلك الأدلّة والبراهين، وليس هذا فحسب بل يذكر البراهين على جميع صفات الله تعالى، وهكذا يقدّم للعالم مبدأ جديدا، ألا وهو أنه لا بد من تقديم الأدلة على جميع صفات الله التي تتعلق بالعباد أيضا، وإلا فلن تثبت صفات البارئ تعالى، وإن ثبت وجوده تعالى. فمثلاً قد قال الله تعالى في القرآن الكريم بهذا الصدد ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الأنعام:١٠٤).. أي أن البارئ تعالى لا تصل إليه أبصار الناس، ولكنه بنفسه

يصل إلى أبصارهم ويكشف عليهم وجوده من خلال قدرته وقوته وتجلي صفاته، وهو اللطيف الخبير.

لقد بيّن الله ﷻ هنا أن عدم رؤيته تعالى لا يعني أنه لا وجود له، إذ من صفات الله تعالى أنه لا يُرَى، بل إنه بنفسه يكشف وجوده للناس من خلال آياته، وأنه يرعى العباد ويسدّ حاجاتهم المادّية والروحانية كلها، وهذا دليل على أنه موجود ولكنه لطيف. وهذا يعني أن بعض صفات الله تعالى كالزوجين وتعمل معًا لتدلّ على وجوده تعالى. فمثلا إن العلم الدقيق والخبرَ بكل صغيرة وكبيرة والاطلاعَ على كل تغيُّر في الكون مهما كان صغيرًا، هو من الأمور التي لا يقدر عليها إلا اللطيف.. أي الذي هو على اتصال كامل بكل ذرة من الموجودات. فصفة "الخبير" هي بمنزلة الزوج لصفة "اللطيف"، لأن الأولى تنكشف من خلال الأخرى، أو أن العلاقة بينهما كعلاقة الجسم مع الروح، حيث لا تثبت الأولى بدون الثانية ولا الثانية بدون الأولى. فلو لم تنكشف صفة "الخبير" من خلال ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ لم يثبت قوله تعالى ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ أيضا، بل لثبَتَ العدم، وبالمثل لو لم يثبت ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾.. أي كونه تعالى لطيفًا لم تثبت صفة "الخبير" أيضًا، لأن الذي ليس له اتصال كامل بكل ذرة من الموجودات لا يمكن أن يكون خبيرا أيضًا.

باختصار، إن القرآن الكريم كتاب مبين من حيث إنه لا يقوم بالدعاوى فقط، بل يقدّم الأدلّة على كل ما يدّعي به أيضًا، لكي يعمل الناس بأحكامه ببشاشة موقنين بأن ما يؤمرون به إنما فيه منفعتهم، ولا يعتبروها غرامة وعبئًا.

ثم إن القرآن الكريم كتاب "مبين" من حيث إنه قد تناول كل الأمور من أحكام أو أخلاق أو عقائد وغيرها ببيان مفصّل مكتمل،كما أنه قد بيّن كل ما يتعلق بقرب الله وحبّه أيما بيان. وهذا يعني أن القرآن الكريم كتاب جامع فيه تفصيل كل شيء كالتوحيد والنبوّة والدعاء والقضاء والقدر والبعث بعد الموت والمعاد وغيرها من القضايا، أما الأسفار الأخرى فقد لزمت الصمت عن كل هذه الأمور المهمة، وإذا تحدثت عنها بشيء فهو لا يسمن ولا يغني من جوع. كما أن التوراة والفيدا

والزندأفستا وغيرها من الكتب السابقة صامتة تمامًا عن الأمور المهمة الأخرى مثل منصب النبي وواجباته والنبوة وحقيقتها. أما القرآن الكريم فقد أفاض في وجود البارئ تعالى وصفاته، كما تحدث بالتفصيل عن قوى الإنسان الروحانية، وأيضا عن تلك الأمور الروحانية الضرورية التي تساعده على تكميل هذه القوى. كما أنه ألقى الضوء على مآل الحياة الإنسانية وساق الأدلة على ذلك. ثم إنه لم يهب الناس بصدد هذه القضايا نورًا جديدًا من الناحية النظرية فحسب، بل قد أوجد بالفعل شخصيات تشرّفت بوصال الله تعالى واكتملت قواها الروحانية نتيجة العمل بالقرآن الكريم.

إذًا، فالقرآن الكريم يفوق جميع الأسفار السابقة من حيث كونه مبينًا بشكل بارز جدًا بحيث إنك لو نظرت إليه من أي زاوية بهرك حسنه وجماله.

ثم إن القرآن الكريم لا يتفوّق على الكتب السماوية الأخرى من حيث إنه قد أتى بمعارف جديدة أو قام بإصلاح ما في الأديان الأخرى من نقائص وعيوب فحسب، بل قدّم تعليمًا أفضل وأكثر شمولاً حتى في الأمور التي يوجد فيها تشابه بين القرآن والكتب السابقة. فمثلاً إذا كان بعض الكتب السابقة قد علّمت طريقة الأكل والشرب أو اللباس وغيرها من الأمور فإن القرآن الكريم قد علّمها بطريقة أفضل. فليس هناك أمر، مهما كان بسيطًا، إلا وقد أتى القرآن الكريم بشأنه بتعليم هو أكثر شمولا وتفصيلا من الصحف السابقة، مؤكّدًا أنه الكتاب المبين. وأتناول هنا مثلاً قضية السلام العالمي الذي ما زالت الدنيا تسعى له على مرّ العصور، فهي حينًا تسعى للسلام الخارجي، وإذا نجحت في ذلك حاولت تحقيق السلام الداخلي. فكلما التقى كبار الأثرياء والعلماء والمفكرين في منتدى ناقشوا هذا الموضوع، وقالوا إننا نتمتع بكل شيء إلا سكينة القلب. وهذا يؤكد أن السلام لا يكون خارجيًا فقط بل هناك سلام داخلي أيضا وهو سكينة القلب، بل الحق أنه لا قيمة للسلام الظاهري إذا لم يتيسر للمرء اطمئنان القلب.

إذًا، فإننا نشاهد أن جميع الناس يتمنون اليوم السلام، ولكنهم قد فشلوا في تحقيقه، وذلك لأن بينهم آلاف الفروق والاختلافات؛ فمصالحهم مختلفة،

وعواطفهم متباينة، وميولهم متفاوتة، وحاجاتهم شتى، فكيف يمكن أن تتمتع الدنيا كلها بالسلام رغم هذا التفاوت الكبير في ميول الناس وحاجاتهم؟ لذا فما لم يسعوا لتحقيق الأمن والسلام وفق قاعدة واحدة لن ينعم الجميع بالسلام والاطمئنان. إن الإسلام يعلّمنا أنّ السلام إنما ينعم به الناس رغم وجود هذا التفاوت في ميولهم وحاجاتهم وأفكارهم، إذا ما أصبح العالم كله تابعًا لذات الله تعالى الذي يريد أن يهيئ لهم السلام. أما بدون ذلك فلن يتيسر لهم الأمن والسلام أبدًا. فإننا نشاهد كل يوم في البيوت أن الوالدين إذا غابا عن أنظار الأولاد لبعض الوقت أخذوا في الشجار والضرب حتى يجرح بعضهم بعضًا ويمزّق بعضهم ثياب بعض، وإذا حضر الوالدان تظاهر أمامهما الأولاد كالمساكين وكأنه لم يجر بينهم شيء من الشجار والخصام؛ وليس ذلك إلا لأن الآباء يريدون لأولادهم أن يعيشوا في أمن وسلام. فالحق أن الدنيا إنما تنعم بالسلام إذا حكمتها ذاتٌ عليا تريد لهم أن يعيشوا في سلام، وتريد أن تهيئ لهم السلام، وتريد إصدار الأوامر التي تؤدي إلى إرساء دعائم السلام، ولن يكون مانحًا للسلام حقيقة إلا الذي يدعو إلى تلك الذات، والحق أن ذلك الشخص الذي يدعو إلى تلك الذات العليا إنما هو محمد رسول الله ﷺ، إذ إنه هو الإنسان الوحيد الذي علّم الناس أن من أسماء الله تعالى "السلام".. أي مانح السلام، حيث ورد هذا الاسم الإلهي بين الأسماء التي عدّدها الله ﷻ في سورة الحشر قال الله تعالى ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ﴾(الآية ٢٤).. أي يا محمد، ادْعُ الناس إلى الله الذي هو مانح السلام للدنيا ومنبع جميع أنواع السلام.. أي كما أن الآباء لا يطيقون الخصام أو الفساد بين أولادهم، بل يعاقبون مَن يخرّب مِن أولادهم السلام، ويحبّون من يحافظ على جو السلام بينهم، كذلك هناك إله فوقكم يرى أن مصالحكم مختلفة، ونواياكم شتى، وحاجاتكم متفاوتة، وأمانيكم متضاربة، وأنكم تستعدون للإخلال بالسلام أحيانًا منجرفين وراء أهوائكم وعواطفكم، ولكن عليكم أن تتذكروا أن الله ﷻ لا يرضى بذلك لأنه السلام وما لم يسلك المرء سبيل السلام لن يكون محبوبًا عند الله تعالى. إن بوسع كل إنسان أن يدرك أن مجرد تمنّي السلام لا يمكن أن ينشر السلام في العالم، ذلك لأن المرء يحبّ السلام لنفسه ولا

يريده للآخرين عادة. فمثلاً حين يقول أحدهم إن المال شيء نافع جدا، فلا يعني بذلك أن ما عند عدوّه من مال هو شيء جيد، وإنما يعني أن المال جيد جدًّا له ولأصحابه فقط. وعندما يقول أحدهم إن الصحة شيء مفيد جدا فلا يعني بقوله هذا أن صحة عدوّه شيء مفيد، إنما يعني أن الصحة مفيدة جدا بالنسبة لنفسه فقط، إذ لا يريد المرء الصحة لعدوه بل يريد له أن يظل فقيرًا وضعيفًا على الدوام. وكذلك عندما يتمنى المرء العزّة والمكانة فلا يتمناها للجميع بل لنفسه فقط. فإذا كانت هذه هي حال أهل الدنيا فإن مجرّد تمنّي السلام سيؤدي إلى الفساد فيها حتمًا، لأن الذين يتمنون السلام إنما يتمنونه لأنفسهم أو لشعبهم فقط، أما العدو فيريدون له أن لا يتمتع بالسلام أبدًا؛ ولو حققنا أمنيتهم فلن يتمتع بالسلام إلا قلّة من الناس، أما باقي العالم فيظل محروما من السلام. ومن الواضح أن السلام الذي ليس سلامًا عالميا لا يمكن أن يسمى سلامًا حقيقيا، إنما يتأتى السلام الحقيقي إذا أدرك الإنسان أن فوقه ذات عليا لا تريد السلام له فحسب بل للعالم أجمع، وأن المرء إذا أراد السلام لنفسه أو لشعبه أو لبلده فقط فلن يحظى بالنصرة والرضا من تلك الذات العليا. فثبت أن إرساء السلام في العالم مستحيل إلا بالترويج لهذه القاعدة والعقيدة.

إذًا، فإن القرآن الكريم قد قام بتطهير نوايا الناس من كل فساد حين أعلن أن الله تعالى هو ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ﴾. ومن الحقائق الثابتة أن الأعمال لا تصلح ما لم تصلح النيات. والحق أن كل ما يوجد في العالم من فساد وحرب إنما يرجع إلى فساد النيات، لأن نوايا الناس لا تتفق مع ما يقولون بأفواههم، ولا تتفق أقوالهم ولا أفعالهم مع نواياهم. فمثلاً يعلن العالم كله اليوم أن الحرب شيء سيئ للغاية، ولكن ليس المراد من قولهم هذا إلا أن إثارة غيرهم الحربَ ضدهم أمرٌ منكر، أما إذا بدأوا هم الحرب ضد أحد فلا بأس في ذلك. ولا يوجد هذا العيب عندهم إلا لأنهم لا ينظرون إلى تلك الذات العليا التي هي السلام. إنهم يفكرون أنهم سوف يعملون بهذه المبادئ ما دامت تصبّ في مصلحتهم، أما إذا تعارض شيء منها مع مصلحتهم فسيرفضونه. ولكنا نجد بين أسماء الله تعالى التي ذكرها القرآن الكريم أنه

رب العالمين، وليس ربًّا لشخص معين أو لشعب معين. وهذه العقيدة هي التي يمكن أن تؤدي بالناس إلى السلام الحقيقي، أي أن للعالم كله إلـهًا يريد أن يتمتع الجميع بالسلام. وإذا تمسكنا بهذه العقيدة فلن تكون نوايانا مغرضة، بل ستكون نافعة للعالم كله، وعندها لن نفكر ما إذا كان أمر ما نافعًا لنا أم ضارًّا، بل سنفكر في تأثير هذا الأمر على الدنيا كلها. إن الناس يقضون على سلام الآخرين من أجل مصلحتهم دائما، ولكن هذه العقيدة ستمنعهم من ذلك، حيث يدركون أن هناك ذاتًا عليا سوف تمزّقهم إذا فعلوا ذلك. لا شك أن الطفل حين يستولي على لعبة طفلٍ آخر يجلب السكينة لنفسه ولكنه يقضي على سكينة صاحبه في نفس الوقت، لا جرم أنه يفرح بينما صاحبه يبكي، ولكن هل تظن أن أباه أو أمه أو أستاذه سيسمح للطفل المعتدي بالاستمرار في التمتع بلعبة صاحبه؟ كلا، إنهم لن يتحمّلوا ذلك بل سوف ينتزعون منه اللعبة ويردّونها لصاحبها، وعندها يدرك الطفل المعتدي أن السلام الذي يناله المرء على حساب الآخرين لا يدوم أبدًا، إنما السلام الحقيقي ما لا يكون فيه هضم لحقوق الآخرين.

باختصار، لا يمكن أن يتأتّى السلام الحقيقي ما لم يؤمن الناس بوجود ذات عليا. وإن الإسلام هو الدين الوحيد الذي علّم الناس أن الله ﷻ هو واهب السلام فقال تعالى ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ﴾.

ثم بعد ذلك يأتي دور رسالة الذات العليا، ذلك أن الإنسان إذا عرف مشيئة الذات التي تريد إرساء السلام، تمنى أيضًا أن يعرف ما إذا كانت قد هيأت الأسباب لتوطيد السلام أم لا. ذلك لأنها تلك الذات العليا إذا لم تهيئ لنا أسباب السلام فلا بد أن نسعى لذلك بأنفسنا؛ وهناك احتمال كبير أن نخطئ في مسعانا وجهودنا، فنعيث في الأرض الفساد بدلاً من إرساء السلام فيها. فثبت أن مجرد تمنّي الناس لإرساء السلام لا يضمن للإنسان السير في الطريق الصحيح للسلام ما لم يعلم ما أعطتْه تلك الذات العليا من تعليمات تساعده على إرساء السلام. إن الخادم لا يمكن أن يُرضي سيده ما لم يكن عنده علم صحيح بما يريده سيده، وإن تمنى طاعة سيده. ولكن إذا علمنا بما يريده سيدنا بدون أن نعرف الطريق الصحيح لتحقيق

إرادته، فأيضا لا يمكن أن يدوم السلام فينا، إذ من الممكن أن نختار طريقا للسلام يخالف مشيئة سيدنا. إذًا، لكي نتمتع بالسلام لا بد أن تدلّنا هذه الذات العليا على طريق لإحلال السلام.

وعندما نفحص القرآن الكريم لنعرف ما إذا كان قد أرشدنا بهذا الشأن نجد الجواب في قول الله تعالى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾(البقرة:١٢٦).. أي ما دام ربكم السلام في السماء يريد إرساء السلام في الدنيا فكان لا بد أن يقيم مركزًا يهيئ السلام للعالم، وبالفعل قد بنى الله مدرسة لهذا الغرض ليجتمع فيها الناس من كل أنحاء العالم ويتلقوا فيها درس السلام. إذًا، فربنا لم يوصنا بإرساء السلام فحسب، بل قد أقام مركزًا للسلام في العالم وهو الكعبة المشرفة، ليأتي إليها الناس ويتعلموا السلام.

أما المنهج الذي سيتم تدريسه في هذه المدرسة، فقد أعلنه رسول الله ﷺ بناء على وحي الله القائل: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾(المائدة:١٦-١٧).. أي أيها الناس، كنتم في ظلام ولا تعرفون كيف تحققون مشيئة الله، فأقمنا لكم مدرسة في الدنيا، ولكن المدرسة وحدها لا تنفع بدون الكتب، ولذلك ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾. إذًا، فالله تعالى قد أقام في الإسلام مدرسة السلام، وجعل لها منهج السلام، كما عيّن فيها معلّم السلام. والمعلّم هو محمد رسول الله ﷺ، ومنهج السلام هو ﴿كِتَابٌ مُبِينٌ﴾.. أي يبين كل الأمور والقضايا ويهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام. فمن أراد رضى الله تعالى فعليه أن يقرأ هذا الكتاب، لأن دروسه تهدي إلى "سبل السلام"، وليس فيه حكم يؤدي العمل به إلى تدمير سلام الناس.

إذًا، فإن الله تعالى يقوم بإصلاح نوايانا، وأما المدرسة فهي تساعد على حلّ قضايا حياتنا العَملية، وأما محمد ﷺ فهو تفسير عَمليّ لهذا الكتاب، حيث يعلن النبي ﷺ هنا بأن الله تعالى قد أرسل لكم كتابًا يفصّل لكم جميع الأمور التي تساعد على إرساء السلام.

ويبقى بعد ذلك سؤال: من ذا الذي يريد له الإسلام هذا السلام؟ يقول الله ﷻ جوابًا على هذا السؤال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾(النمل:٦٠).. أي يا محمد، قُلِ الحمد لله الذي أرسى السلام في الدنيا ونجّى الخَلق من القلق والاضطراب، فالذين يحظون برضا ربهم ويضحّون بأنفسهم في سبيله، سيكتب لهم السلام، فيعيشون في أمن وسكينة.

لقد أعلن هنا رسول الله ﷺ أن كل أولئك الذين يتبعونه ويتعلمون في مدرسته سيتمتعون بالسلام الكامل ولن يروا في أي مرحلة من حياتهم قلقًا ولا اضطرابًا.

وهنا يطرح السؤال نفسه: ما دام الله تعالى هو السلام، فيجب أن يكون السلام الآتي منه للجميع وليس للبعض، فإن السلام الخاص بالبعض ليس حلا مُرضيا للقضية. وقد أجاب الله ﷻ على هذا السؤال في القرآن الكريم وقال: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ ۝ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(الزخرف:٨٩-٩٠).. أي أن محمدًا ﷺ قد جاء بأحكام هي ذخيرة رحمة لكل إنسان، وتهيئ السلام للجميع، ولكن الناس لا يعلمون ذلك للأسف الشديد، بل يحاربون هذه التعاليم التي هي في الحقيقة بشرى سارّة لهم حتى اضطر محمد (ﷺ) ليشتكي لربّه ويقول: يا رب قد جئت قومي برسالة السلام، ولكنهم لا يؤمنون بها.. أي لا يدَعونه في أمنٍ وسلام - علمًا أن من معاني الإيمان التصديق وأيضًا إتاحة الأمن والسلام للآخرين (انظر أقرب الموارد) - وإلى هذا الأمر نفسه قد أشار الله تعالى بقوله: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾(الزخرف:٨٩).. أي أن نبيّنا هذا يبتهل إلينا مرارا ويقول: يا رب قد جئتُ قومي برسالة سلام، ولكنهم بدل أن يقدّروها قد عقدوا العزم على معارضتي حتى أنهم قد دمروا سلامي أيضًا. فقلنا لنبيّنا ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾.. أي أنهم يجهلون عظمة تعاليمك فيغضبون ويعارضونك، فاصفح عنهم لأننا إنما بعثناك لإرساء الأمن والسلام. ثم قال الله تعالى ﴿وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.. أي إذا هاجموك وضيّقوا عليك الخناق فلا تقل لهم سوى أنني ما جئتكم إلا بسلام، وستعرف الدنيا عما قريب أنك قد أتيتها بالسلام

لا بالحرب. وهذا يعني أن السلام الذي أتى به النبي ﷺ ليس خاصًا بالمؤمنين فقط بل هو للجميع.

ثم يقول الله تعالى مخاطبا المؤمنين جميعا وليس محمدا ﷺ فقط: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾(الفرقان:٦٤).. أي أن الجاهلين الذين لا يعرفون غاية الإسلام عندما يتخاصمون مع المؤمنين يقول المؤمنون لهم: لا نريد لكم إلا خيرًا وسلامًا وإنْ أردتم لنا شرًّا. وعندما يقول لهم أعداؤهم إنكم تنشرون في الدنيا عقائد سيئة يردّون عليهم بأنها ليست عقائد سيئة ولا باطلة، إنما هي تعاليم تدعو إلى السلام. وهذا يعني أن السلام الذي أتى به الرسول ﷺ لم يكن خاصا به ولا بالمؤمنين، بل كان للعالم بأسره.

ثم هناك سؤال يطرح نفسه: أمؤقت هذا السلام الذي أتى به محمد (ﷺ) أم دائم؟ صحيح أنه قد أتى من عند الله تعالى بالسلام للدنيا، ولكن بعض أنواع السلام الذي يكون عابرًا ومؤقتا يكون منطويًا على مفاسد كبيرة. شأنه شأن المصاب بالحمى، فإنه كلما شرب ماءً باردًا شعر براحة كبيرة، ولكن بعد دقيقة أو ثلاث تشتد به الحمى ثانية فيصرخ: لقد احترق جسمي. ثم إنه يشرب ماءً مبرَّدًا بالثلج، فيظن أنه قد تماثل للشفاء، ولكن يعود إليه اضطرابه ثانية. فالسؤال: هل السلام الذي أتى به محمد مؤقت أم دائم؟ وقد أجاب الله على هذا السؤال فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾(يونس:٢٦).. أي أن أهل الدنيا يدفعون الناس بتعاليمهم إلى الفساد، ولكن التعاليم التي أتى بها محمد لا تهب الإنسان سلامًا في هذه الحياة فقط، بل تهب له سلامًا دائمًا يستمر بعد وفاته أيضا، ويأخذه إلى دار في الآخرة التي ليس فيها إلا السلام. وهذا يعني أن سلسلة هذا السلام مكتملة الحلقات، حيث تجد في أوّلها تلك الذات العليا التي هي السلام، ثم تجد في وسطها مدرسة السلام التي عُيِّن فيها مدرس للسلام يعلّم منهج السلام، كما أقيمت جماعة من المؤمنين الذين ﴿إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾. وفي آخر هذه السلسلة أيضًا سلام لقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾. إذًا، فهناك سلام في الماضي

وسلام في الحاضر وسلام في المستقبل أيضًا، وهكذا اكتملت حلقات سلسلة السلام هذه دون أي نقص.

ثم هناك سؤال: ما هي الذرائع والطرق لإرساء هذا السلام؟ وقد سلّط الله تعالى الضوء على هذا السؤال في القرآن الكريم حيث أعلن على لسان رسوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(الأنعام:٨٢).. أي كيف يمكن أن يصيبني القلق والخوف من أصنامكم التي أشركتموها بالله الأحد في حين لا تخافون أنكم أشركتم بالله، مطمئنين في قلوبكم اطمئنانا زائفا. بينما الواقع أنكم أنتم في الخطر. وما دامت جهالتكم تمنحكم السلام، فكيف تظنّون أن معرفتي الكاملة لا يمكن أن تهب لي السلام والسكينة، ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتم تَعلَمُون﴾.. لو أعملتم الفكر والعقل متخلين عن الغباء والحماقة لعلِمتم مَن منا في الأمن ومَن في الخطر.

لقد بيّن الله هنا طريقين عظيمين لإرساء السلام في العالم، أوّلهما: التوحيد الكامل، فمن المستحيل أن يتمتع العالم بالأمن والسلام بدون قيام التوحيد الكامل، وإنما ستستمر الحروب. وذلك لسببين: أولهما أن الشرك لا يعني فقط أن يؤمن المرء بثلاثة آلهة مثلاً عوضًا عن الإله الواحد، بل إنك ترى أنواعًا كثيرة وصورًا مختلفة للشرك والوثنية حينما يقع الناس في الشرك الخفي. والسبب الثاني هو أنه ما دامت تعاليم الأديان مختلفة ونظرياتها متباينة، فلا يمكن أن يدوم السلام في العالم إلا إذا تمّت بين الناس مؤاخاة حقيقية، ولا يمكن أن تتم بينهم أية مؤاخاة إلا بواسطة إله واحد. لا شك أنك تجد الناس يتقاتلون في الدنيا تفاخرًا بأنسابهم، حيث يقول أحدهم: كان جدّي من العظماء، فيرد عليه الآخر: جدي أعظم من جدّك، ولكنك لن تجد الإخوان يتقاتلون فيما بينهم متفاخرين بنسبهم، فلن يقول الأخ لأخيه: أنا أعزُّ منك نسبًا! ولكن إذا قام التوحيد الكامل في الدنيا، انتهت مثل هذه النزاعات والحروب. فدرس الأُخوّة والمساواة الذي يعلّمنا التوحيد لا يمكن أن نتلقاه بأي طريق آخر. والحق أن أعداء الإسلام أيضا يعترفون أن درس الأُخوّة

الذي أعطاه الرسول ﷺ لم يعطه أحد غيره (Muhammad And Teaching of Quran p. 114).
والواقع أن النبي ﷺ لم يُعط المسلمين درس الأُخوّة بشكل منفصل عن التوحيد، بل عندما علّمهم التوحيد، نشأت الأُخوّة بينهم تلقائيًا كنتيجة منطقية للتوحيد. فمثلا عندما أقول في صلاتي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي أن الحمد كلّه لله الذي هو ربُّ المسيحيين ورب الهندوس ورب اليهود وغيرهم من الفئات والشعوب، فكيف يمكن بعد هذا الإعلان أن أكرَههم؟ حينما أقول في صلاتي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فكأنما أقول: الحمد لله ربِّ الأديان كلِّها، والحمد لله ربِّ الأقوام كلِّها، والحمد لله ربِّ البلاد كلّها. وما دمت أعترف بهذا الأسلوب الرائع بأن الله تعالى ربُّ الشعوب كلها وربّ الناس كلّهم، فمن المحال أن أكنّ لهم العداء بعد ذلك. إذًا، فقد علّمنا الله تعالى بقوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنه إذا قام التوحيد حقًّا، وإذا ظلَّ لسان المرء رطبًا بحمد رب العالمين فعلاً، فمن المحال أن يكنّ في قلبه البغض تجاه أمة من الأمم، إذ كيف يمكن أن يتمنى هلاكهم من ناحية، ويحمد الله ويثني عليه برؤيتهم من ناحية أخرى؟

والطريق الثاني الذي نبّهنا الله تعالى إليه هنا لإرساء السلام هو قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾، ومعناه أن السلام إنما يُدمَّر في الدنيا حين يترك الإنسان دين الفطرة ويتّبع التقاليد الفارغة والعادات الزائفة. لو تمسّك الإنسان بالأمور الفطرية الطبعية لما حصلت في الدنيا خلافات ولا نزاعات، ومن أجل ذلك قال النبي ﷺ: الإسلام دين الفطرة. والحق أن الدين الذي يوافق الفطرة، هو الذي يقدر على إرساء السلام في العالم، ولن يستطيع أي دين نشر الأمن في الدنيا إلا الذي يكون نسخة منه محفوظة في عقولنا؛ إذ كيف يمكن أن يدعونا الله تعالى إلى تعليم لم يجعل فطرتنا منسجمة معه، و لم يجعل عقولنا وأذهاننا مستعدّة لقبوله. ولذلك قال الله تعالى هنا: ﴿مَا لَمْ يُنزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾.. أي قل لهم إنكم تتبعون ما يخالف الفطرة الإنسانية، وأنا أدعوكم إلى ما هو في فطرتكم. فكلما حاول الإنسان أن يدرس فطرته اعترف قلبه من تلقائه أن الكتاب الذي يحمله محمد ﷺ في يده حقٌّ وصدقٌ، لأن نسخته الأخرى موجودة في عقله وفطرته. وهكذا

فكل العالم سيجتمع على مركز واحد بالتدريج، ويتّحد الجميع على فكرة واحدة، وبالتالي سيسود السلامُ العالم.

وبقي الآن سؤال آخر وهو: لا شك أن محمدا رسول الله ﷺ هو معلّم السلام، وأنه قد أقام مدرسة لإرساء السلام في العالم، وأن الله ﷻ قد جعل فيها منهجًا للسلام، وأن الإسلام يقدّم تعاليم تتفق مع الفطرة تماما إذ لا تملك الفطرة الإنسانية إلا الاعتراف بصدقها، ولكن هل الحرب شيء سيئ في كل حال؟ لقد أجاب القرآن الكريم على هذا السؤال، وبيّن أنه لا بد من الحرب أحيانًا لإرساء السلام. قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:٢٥٢).. أي أن السلام شيء غال بلا شك، وأن الله تعالى قد جعل العقل الإنساني يحبّ السلام، ولكن في بعض الأحيان يبتعد العقل عن الفطرة وتحيد عقائد الناس عن مركز السلام بحيث تبعد عن السلام بعدًا كبيرًا ، وإنما لا تنحرف عن السلام فحسب، بل تحاول القضاء على حرية الضمير والرأي. ولا بد في هذه الحالة من التصدي للشرير إرساءً للأمن وتوسيعًا لرقعة السلام. إذًا، فمثل هذه الحرب لا تكون من أجل القضاء على السلام؛ بل لإرسائه في الحقيقة. وكما أن الإنسان إذا فسُد عضو من أعضائه توسل إلى الطبيب بدفع مال كثير كي يبتر عضوه الفاسد، كذلك توجد في الدنيا من حين لآخر فئات تعمل كخلايا السرطان، ولا بد من استئصالها كي لا يهلك باقي القوم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾.. أي لو لم ندفع شرَّ بعضهم بواسطة آخرين لاستشرى الفساد في الأرض عوضًا عن السلام. وكما أن الشرطة تؤمَر أحيانا بضرب الناس بالعصيّ، كذلك نسمح لعبادنا أحيانًا بضرب البعض لأنه إذا لم يكن هناك ضرب بالعصي لقُضي على سلام العالم كلّه.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.. أي أنه تعالى لا يريد السلام لأمّة واحدة، بل يريد أن يعيش جميع العالمين في أمن وسلام. وبما أن هذه الفئة المفسدة تريد القضاء على سلام العالم، فاقتضى الأمر التصدّي لها ليسود السلام العالم كلّه. لا شك أن هذا التصرف منا سيدمّر سلام هذه الفئة المعيّنة،

ولكن لا بأس بذلك فإن الناس يقارنون دائمًا بين المصلحتين، فإذا تعارضت المصلحة الصغيرة مع المصلحة العليا، ضحّوا بالمصلحة الصغيرة. كذلك نعلن الحرب ضد الفئة القليلة المفسدة من أجل سلام باقي الدنيا، ولا نُخلي سبيلها إلى أن ترتدع عن تصرفاتها المخلّة بالأمن.

هذا ملخّص التعاليم التي يقدّمها الإسلام لإرساء السلام. وليس بخاف على أي امرئ مدى الشمولية والتفصيل التي تناول بها الإسلام هذه القضية، في حين نجد الأديان الأخرى صامتة حولها تمامًا حيث لم تقدّم للناس أي نوع من الهداية بهذا الصدد. أما قولهم: "مَن لطَمك على خدّك الأيمن فحَوِّلْ له الآخر أيضا، ومَن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاتركْ له الرداء أيضا، ومَن سخّرك ميلاً واحدًا فاذهَبْ معه اثنين" (متى ٥: ٣٩-٤١)، فلم يكن حلاً للقضايا العالمية، كما لم تنجح اليهودية والمسيحية قطّ في إرساء السلام في العالم عملاً بهذا التعليم فقط، بل الحق أن العمل به يؤدي إلى الفساد في الدنيا بدلاً من إرساء السلام. فمثلا إذا كان أحد يريد أن يحمل أمتعته إلى بيته فأراد أن يقهر أحدًا على حملها، فإن المسيحية تأمر هذا الشخص أن يذعن له ولا يقاومه، ولكن عليه أن لا يتوقّف عند بيته بل يأخذه بعيدًا عن بيته بميل آخر! فهل العمل بهذا التعليم يضمن السلام لأحد يا ترى؟ كلا، بل إن صاحب المتاع سوف يضطر لحمل أمتعته ثانية، كما أن الشخص الثاني سيضطر لحملها إلى مِيل زائد، هذا يعني أن كليهما لم يجد السلام بل وجدا عناءً وتعبًا.

فالحق أن السلام إنما يتأتى بالعمل بالتعليم الذي يقدّمه الإسلام فقط، لأن الإسلام يعرض على العالم كتابًا مبينًا قد ألقى الضوء على جميع أحكامه، ولا تستطيع أيّة صحيفة أو كتاب أن تباريه في هذا المجال، سواء أكانت التوراة أو الإنجيل أو الزندأفستا.

وخلال معرض الحديث عن "الكتاب المبين" أرى لزاما عليّ أن أذكر أن الله ﷻ لم يجعل معرفة صدق الكتاب المبين منحصرة في الأدلة الظاهرة، بل قد أعدّ لبيان صدقه كتابا آخر اسمه في المصطلح القرآني "كِتاب مَكنُون" (الواقعة:٧٩). ومثال

الكتاب المكنون كمثل الماء الذي يكون مخفيًّا في باطن الأرض، ومثال الكتاب المبين كمثال الماء الظاهر الذي يجري أمام أعيننا في الأنهار والجداول والعيون. وكما أن سطح ماء الآبار يرتفع نتيجة كثرة ماء الأنهار والجداول والأمطار، كذلك يُخرج الكتاب المكنون أيضا خزائنه عند نزول الكتاب المبين، وعندما ينقطع مطر الكتاب المبين يصبح الكتاب المكنون أشدَّ خفاء. والمراد من الكتاب المكنون هو الفطرة السليمة والضمير الحيّ، والمراد من الكتاب المبين هو ما ينزل من عند الله من وحي جديد. والدليل على صدق الكتاب المبين أنه يطابق الكتاب المكنون تمامًا كأنهما قطعتان من جوهر واحد يمكن أن نسميه الكتاب المطلق. وإذا توافق الكتاب المكنون والكتاب المبين فتيقّنوا أن الكتاب المبين هو من عند الله ﷻ. وكأن الله تعالى أراد أن يحفظ عباده من الخداع، فأودع نسخة من كتابه قلوبنا وعقولنا أيضا لنصدّق الكتاب الذي يكون مطابقًا لهذه النسخة ونرفض الكتاب الذي لا يطابقها باعتباره كتابا باطلا. ومثاله ما حصل معي خلال سفري عندما كنت عائدًا من إنجلترا عام ١٩٢٤الميلادي. ذلك أن أحدًا من المهندسين العاملين على السفينة أخذني جانبًا وقال: لا جرم أنك لم تذهب إلى إنجلترا بغرض الدعوة إلى الإسلام بل كان هدفك أهم من ذلك وكانت الدعوة مجرّد غطاء. فقلت له: كلا، لقد ذهبنا هناك من أجل نشر دعوة الإسلام و لم تكن لنا أية غاية أخرى. ولكنه كان موقنًا بأني ذهبت هناك تحت غطاء الدعوة والتبليغ، فقال لي: كلا، إنما ذهبت للتآمر على الإنجليز متظاهرًا بالدعوة والتبليغ. فأعدتُ عليه جوابي، ولكنه ظل مصرًّا على موقفه وقال: إنني جاهز لتقديم الخدمات لك، فمُرْني بما تريد. فإن كنت تريد أن تبعث إلى ممثلك في إنجلترا أية تعليمات سرية فإنني مستعد للقيام بهذه المهمة على ما يرام وفي سرّيّة تامّة. ولكي يجعلني أثق به أخرجَ بطاقته التعريفية وجعَلها نصفين، وقال: ها هي بطاقتي، فإذا بعثتَ إليّ رسالتك المشتملة على تعليماتك السرّية لأُوصلها إلى ممثلك، ضَعْ معها نصف البطاقة، وابعث نصفها الآخر إلى ممثلك؛ وعندما يطالبني ممثلك برسالتك السرّية ويخرج لي نصف بطاقتي سوف أقارن هذا النصف مع النصف الذي معي، فإذا توافق النصفان، علمتُ أنه ممثلك الذي يجب

علي تسليم رسالتك إليه. ثم إنه ضرب لي مثالا وقال: لنفترض أني ذهبتُ برسالتك إلى مدينة البندقية (Venus)، ووجدت هناك شخصا هنديًا في انتظاري، فيُخرج لي من جيبه نصف بطاقتي، فسوف أقارن هذا النصف بالنصف الذي معي، فإذا توافق النصفان دفعت إليه الرسالة.

لا شك أن المهندس ضرب لي مثال البطاقة نتيجة ظنّه الخاطئ بأننا نقوم بمؤامرة ضد الإنجليز، ولكنه لم يحد عن الصواب في قوله إنه إذا تطابق نصفا البطاقة لم تبق أي شبهة في أن البطاقة أصلية وليست مزورة. وبالمثل قد أودع الله تعالى أحد نصفَي الكتاب المبين في ضمير الإنسان وعقله، وإذا توافق النصفان تبين جليًا أن الكتاب المبين حق. ولكن كما أن مياه الآبار تختفي عند انقطاع الأمطار، كذلك لا ينفع الكتاب المكنون إلا عند هطول مطر الكتاب المبين، أما في زمن "الفترة".. أي انقطاع هذا المطر الروحاني.. فيختفى الكتاب المكنون أيضًا. فمثال الكتابين كمثال صديقَين محبّين إذا اقترب الواحد منهما اقترب الآخر، وإذا تباعد أحدهما ابتعد الآخر أيضًا. فعندما يتجلى الكتاب المكنون في أحد لصفاء ضميره وزادَه صفاءً وجلاءً بالعمل به، نزل عليه الكتاب المبين أي الوحي والإلهام فجأة؛ وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾(النور:٣٦).. أي أن الفطرة المحمدية المباركة كانت طاهرة صافية لدرجة أنها تكاد تضيء من تلقاء نفسها.. بمعنى أنها تكاد تطّلع بنفسها على معارف السماء ودقائق الروحانية دون أن تلمسها نار السماء؛ ذلك لأن من سنة الله أنه إذا التهب زيت الروحانية في باطن المرء جذب نار السماء من تلقائه. إذًا، فهناك علاقة غريبة بين هذين الكتابين؛ فإذا اقترب الواحد منهما اقترب الآخر أيضًا. الحق أنه إذا كانت فطرة المرء سليمة جذبت إليه الوحي والإلهام، وإذا تمتع المرء بنور الإلهام تجلت ما في فطرته من ملكات صحيحة، وتولدت بينها وبين الإلهام لذة كلذة اللازم والملزوم. وبالمثل إذا امّحى الكتاب المكنون في الإنسان لم يحظ بالكتاب المبين أيضًا، وإذا حُرم من الكتاب المبين امّحى الكتاب المكنون الموجود فيه أيضًا. وهذا هو السبب في أنه يستحيل على المرء أن يحظى بالإيمان الكامل من خلال التدبر وحده مستعينًا بفطرته فقط، ذلك لأن فطرة

المرء إذا كانت سليمة كاملة فمن المحال أن تبقى بدون الإلهام الكامل، بل لا بد من أن ينـــزل عليها الإلهام فورًا كما يلتقط جهاز المذياع السليم من أي عطل الأخبارَ تلقائيًا، أو كما تُلتَقط الأمواج الكهرومغناطيسية على الأدوات اللاقطة لها.

مجمل القول إن الإلهام والفطرة السليمة قطعتان من جوهر واحـــد، واعتبارهمـــا شيئين منفصلين حمق وغباء. إن الفطرة السليمة والمشاعر المتناسبة الملائمة هي التي تُلهب نار الحب الإلهي التي تستنـــزل الوحي والإلهام وتسهّل الوصال بالله تعـــالى. إذًا، فليس الوحي الحق والكلام السماوي إلا ذلك الذي يكون وثيق الصلة بالفطرة الصحيحة والعواطف الطبيعية، والذي لا يقتل عواطف الإنسان الطبيعية بل ينميها على نحو سليم، والذي تدعمه الفطرة الإنسانية السليمة معلنة أن هذا الكلام إنما هو قطعة مني. أما الكلام الذي يحاول قتل الفطرة السليمة فلا بد أن يعارض الكتـــاب المكنون، ومهما أشادت به الألسنة إلا أن القلوب لا تطمئن بها، ولا بد أن يفـــشل في تحقيق الهدف، ومثله كمثل نصف الجسد أو كمثل الذَّكَر الذي لا يقدر علـــى الإنجاب بدون الأنثى.

إذًا، فإن من أكبر فضائل القرآن الكريم أنه كتاب مبين، وأن هذا الكتاب موجود في الفطرة الإنسانية السليمة، بمعنى أنه ليس في القرآن حكم واحد يتنافى مع الفطرة الإنسانية. ولكن بما أن دقائق كنوز الفطرة السليمة أيضًا لا تظهر بـــدون المعونـــة السماوية، فيُنـــزل الله تعالى الكتاب المبين لينكشف الكتاب المكنـــون، وليعـــرف الناس صدق الكتاب المبين مستعينين بالكتاب المكنون. وقد بين صلحاء الأمة هذه الحقيقة بقولهم: "مَن عرَف نفسَه فقد عرَف ربَّه".. أي أن الإنسان يـــصل إلى الله تعالى بمعرفة دقائق الفطرة الإنسانية. بيد أن قولهم هذا ناقص إذ هو بمثابـــة أحـــد شطري البيت. وليس الحق إلا ما قال القرآن الكريم بأنه مما لا شك فيه أن الإنسان يعرف ربه من خلال معرفة نفسه، ولكن معرفة النفس أيضًا لا تتيسر إلا بوحي الله تعالى. وهذا يعني أن الإنسان بحاجة إلى الكتاب المبين حتى لمعرفة نفسه أيضًا، وأن الواحد متصل بالآخر بصلة متينة.

ثم يقول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.. أي يا محمد، هناك رغبة عارمة في قلبك لتوصل إلى الناس وَحْيَنا الذي أنزلناه عليك لتهديهم ولتمتّعهم بهذه الثروة التي لا زوال لها؛ وقد اشتدت بك هذه الأمنية بحيث نخشى أن تقتل نفسك أسفًا على أنهم لا يؤمنون بهذا الكتاب المبين الذي قد نزل لخيرهم في الدنيا والآخرة، والذي ينطوي على أسباب رقيهم بكل أنواعه ماديًا وروحانيًا. علمًا أن البخع يعني ذبح الذبيحة حتى قفاها (المنجد)، فكلمة البخع تنطوي على معنى المبالغة والقسوة في الذبح؛ وعليه فإن هذه الآية تشير إلى أن محمدًا رسول الله ﷺ قد بلغ به حبُّ الإنسانية والأسف على عدم اهتداء الناس بحيث يكاد يقتل نفسه حزنًا عليها، حيث أصبح كالذي يذبح الذبيحة بحماس شديد حتى يذبحها إلى قفاها. لقد بُعث إلى الدنيا آلاف الأنبياء، ولكن لم يبلغ أحد منهم ذلك المقام العالي في حب الإنسانية إلا محمد رسول الله ﷺ. والحق أن حياته ﷺ كانت أروع مثال للعقل والحكمة من جهة، ومن جهة أخرى كانت أطهر ظهور للعواطف بحيث أصبح مثالاً شامخًا للعواطف الإنسانية ينطبق عليه ما قاله بعض الشعراء بالفارسية:

هرگز نميرد آنكه دلش زنده شد بعشق

ثبت است بر جريدهٔ عالم دوامِ ما

(ديوان حافظ الشيرازي (فارسي) ص ٩٩)

أي لا يموت أبدًا من كان قلبه عامرًا بالعشق، فخلودنا مسجل في صفحات تاريخ العالم.

الحق أنه لم يُكتب الخلود للعقل وحده أبدًا، إنما كُتب للعشق والعواطف دائمًا. لقد خلا في الدنيا كبار الفلاسفة والعشاق، ولكن لم يتمتع الفلاسفة بالمكانة التي تبوّأها العشاق في قلوب الناس. دعوا جانبًا ما ضربه الأنبياء من أمثلة رائعة في مجال العشق الحقيقي، وخذوا أمثلة العشق المجازي فقط. فقليل هم الذين يعرفون أحوال أرسطو وأفلاطون أو حتى اسميهما، ولكن هناك عدد لا حصر له من الناس يعرفون اسم ليلى ومجنونها، وما أكثرَ الذين يحاولون تقليدهما. فما من قرية ومدينة إلا وتجد

بها الشعراء، وليس هؤلاء الشعراء إلا تلاميذ ليلى ومجنونها في الواقع. ولو استثنينا منهم أولئك الشعراء الذين قد استثناهم الله تعالى في القرآن الكريم والذين يقرضون الشعر خدمة للدين أو في ذكر الله تعالى، لوجدنا أن سائر الشعراء الآخرين إنما يقلّدون ليلى ومجنونها. لا شكّ أنهم ليسوا ليلى ولا مجنونها حقيقةً، ولكنك إذا سمعت شعرهم لخُيّل إليك أن هؤلاء القوم لم يذوقوا الطعام قط، ولم ينعموا بالنوم قط وإنما يقضون لياليهم ساهرين دائمًا، ولم تجفّ الدموع من عيونهم قط، ولم تبقَ القلوب والأكباد في أبدانهم وإنما ذابت وأصبحت ماءً ودمًا منذ زمن بعيد، وأن هذا الإنسان الذي يراه الناس حيًّا قد مات مرارًا ودُفن مرارًا، وأن حبيبه قد جاء يزور قبره ولكنه قد زاره بكل احتقار. وهذا يعني أن هؤلاء الشعراء يريدون أن يسبقوا ليلى ومجنونها عشقًا ومحبةً، مما يؤكد أن العشق أشد غلبةً على قلوب الناس من العقل. ولكن محمدًا ﷺ لم يحرز قصب السبق في مجال العقل والحكمة فحسب، بل قد فاق الجميعَ في مضمار الحب والعشق أيضًا، فلا يمكن أن يباريه أي محب ولا عاشق. دعوا حبَّ الله تعالى جانبًا فهو أسمى من متناول معظم الناس، وتعالوا نر حبه ﷺ للإنسانية. من هو مجنون ليلى؟ كان مجرد عاشق لامرأة، وكان مغرضًا في عشقه حيث كان يريد التمتع بجمالها، أما النبي ﷺ فكان حبه للإنسانية أسمى من أي غرض ومنفعة. ثم إن حبه ﷺ لم يشمل شخصًا أو شخصين، ولم يقتصر على الأصدقاء والأقارب ولا أهل الحسن والجمال، بل شمل الجميع، بل كان شديد الحب لأهل الدمامة أيضًا حيث يقول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.. أي يا محمد ربما تُهلِك نفسك لا من أجل ذوي الحسن والجمال فحسب كأبي بكر وعمر اللذين استنارت وجوههم نورًا وجمالاً نتيجة إيمانهم، بل أيضًا من أجل ذوي الدمامة الذين لا يطيق المرء النظر إليهم، والذين يكاد الرجل الروحاني يتقيأ برؤيتهم كأمثال عتبة وشيبة وأبي جهل، فلمَ تُهلك نفسك حبًّا لهم وحزنًا عليهم بأنك لا تقدر على نفعهم؟ فشتّان بين حب مجنون ليلى وبين حب النبي ﷺ للإنسانية؟ إن المجنون قد عشق امرأة أعجبه جمالها، ولكن النبي ﷺ قد أحب حتى أولئك القوم الذين كانت تُكره وجوههم الدميمة الخالية من الروحانية.

ثم إنه ﷺ لم يحب إنسانًا واحدًا بل قد أحب الإنسانية جمعاء، و لم يحب أهل زمنه فحسب، بل قد أحب أيضًا أولئك الذين لم يأتوا بعد حيث قال الله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾(الجمعة:٤).. أي أن محمدًا رسول الله (ﷺ) لا يريد أن ينفع أهل زمنه فحسب، بل يود أن تنفع فيوضه حتى أولئك الذين لم يولدوا بعد. فما أعظمَ مكانةَ النبي ﷺ في عالم الحب والعواطف أيضًا، حيث لا يعرف حبه الحدود والانتهاء! لقد ألهب النبي ﷺ جذوة حب الله تعالى في قلبه، ثم طار إلى أعالي السماء، وخرّت روحه على العتبة الإلهية، واقتبس حبه قبسًا من نار حب الله تعالى، وهذا يعني أن محبته المحدودة جذبت المحبةَ الإلهية غير المحدودة وأنزلتها إلى الدنيا، وكما أن أشعة الشمس تسطع من الشرق وتنتشر على وجه الأرض كذلك انتشر حب النبي ﷺ في العالم وشمل الشرقي والغربي والأبيض والأسود والجميل والدميم أجمعين. ثم إن حبه ﷺ قد تجاوز حدود الزمان والمكان، و لم ينته رغم مرور الأحقاب والقرون، ولن ينتهي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لا شك أن كل إنسان بارّ يمر بأيام هذا الحب من حين لآخر، فقد ورد عن حضرة نظام الدين أولياء – رحمه الله – أنه كان يمشي مع مريديه مرة، فمر به طفل جميل، فتقدم إلى الطفل وقبّله. فبدأ المريدون يقبّلون الطفل ظنًا منهم أن شيخهم ربما رأى في وجهه التجلي الإلهي، ولكن أحد مريديه المقربين لم يقبل الطفل فأخذوا يتكلمون فيه ويعيبونه. ثم مرّ شيخهم بمخبز تخبز فيه امرأة، وكانت تشعل النار في الموقد بإلقاء الأوراق، وكان منظرًا جميلاً، فتوقف الشيخ يشاهده، ثم تقدم وقبّل شعلة النار، فتقدم مريده المقرب وقبّل النار مثله، و لم يجرؤ أحد من المريدين الآخرين على تقبيلها. فتوجه إلى زملائه وقال: لقد قبلتم الطفل الجميل مع أن الطفل الجميل يعجب الجميع، أما شيخنا فإنما قبّله لأنه قد رأى فيه جلوة الله تعالى، ولكني لم أستطع أن أرى فيه جلوة الله فلم أقبله، أما الآن فقد شاهدَ جلوة الله في النار فقبّلت شعلتها اتّباعًا لشيخنا. أما أنتم فإنما قبّلتم الطفل الجميل اتباعًا لهوى النفس فقط.

فثبت من ذلك أن كل واحد من أهل الله تعالى يمتلئ حبًّا للإنسانية بين فترة وأخرى، ولكن حب النبي ﷺ للناس لم يكن مؤقتًا، بل كان جزءًا لا يتجزأ من جسمه وروحه، وما أدل على ذلك من الكلمات التي جرت على لسانه المبارك قبيل وفاته حيث قال: "لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" (مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على قبور). وهذا يعني أن قلب النبي ﷺ كان يتقطع أسفًا على شراءِ اليهودِ والنصارى الجحيمَ لأنفسهم، ومن أجل ذلك أوصى أتباعه أن لا يفعلوا كما فعل هؤلاء القوم. وهذا يعني أن حب النبي ﷺ لفئتي الكفار والمؤمنين كلتيهما قد تجلى حتى عند سكرات الموت، فكان يتمنى إنقاذ اليهود والنصارى من الشرك من جهة، ومن جهة أخرى كان يخاف أن يقع أتباعه في نفس الخطأ. إذًا، فإن حياته ﷺ كلها تؤكد أنه كان يكنّ الحب لكل شريحة من شرائح الناس.

ورد في الحديث أن رأس الرجل فيمن قبلكم كان يُشَقّ بالمنشار بسبب دخوله في دين الله، ومع ذلك كان لا يتأفف (البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام). وأما الرسول ﷺ فظل يُشَقّ بالمنشار كل يوم ليس سنة أو سنتين أو عشر سنوات بل إلى يوم وفاته، وقد تحمل من الأذى والتعذيب حتى قال له رب السماء: لم تُهلك نفسك أسفًا عليهم بأنهم لا يؤمنون. يقول المسيحيون إن المسيح قد كفّر عن ذنوب جميع الآثمين بموته على الصليب (رومية ٥: ٢-٨ وغلاطية ٣: ١٣)، ولكن الأمر أنه عليه السلام قد عُلّق على الصليب مرة واحد فقط في كل حياته، بينما قضى محمد رسول الله ﷺ كل لحظة من حياته معلقًا على الصليب، وقبل الموتَ آلاف المرات؛ ومن أجل ذلك لم يمدح الله تعالى أحدًا كما مدحه ﷺ؛ لا نوحًا ولا إبراهيم ولا موسى ولا داود ولا سليمان ولا عيسى - عليهم السلام - ذلك لأنه لم يوجد في قلب أي واحد من الأنبياء مثل ذلك القلق العميق الذي وُجد في قلب النبي ﷺ لإصلاح الدنيا وهدايتها. وعندما نفحص وقائع حياة النبي ﷺ نجد عند كل خطوة أحداثًا تدل على ما كان يكنه من حب وشفقة نادرين تجاه الإنسانية.

لقد تحمل في سبيل تبليغ رسالة الله تعالى ولسنوات عديدة من الأذى والتعذيب ما لا حدود له.

فذات مرة كان النبي ﷺ في الكعبة فخنقه الكافرون بردائه خنقًا شديدًا حتى احمرت عيناه وكادتا تخرجان من حدقتهما. فعلم أبو بكر ﷺ بذلك، فأتى مسرعًا ودفع عنه الكافرين وقال لهم وقد اغرورقت عيناه: ألا تخافون الله تعالى؟ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ (البخاري: كتاب المناقب، مناقب أبي بكر ﷺ)

وذات مرة كان النبي ﷺ مستغرقًا في أفكاره جالسًا على صخرة، فمر به أبو جهل ولطمه بشدة وبدأ يسبه سبًّا فاحشًا، فتحمل النبي ﷺ هذا الأذى والسباب ولم يكلّمه بشيء. وعندما ذهب أبو جهل قام النبي ﷺ من مكانه وأتى بيته. وكانت مولاةٌ لحمزة تشاهد كل ما جرى مع النبي ﷺ. ولم يكن حمزة قد أسلم بعد، وكان امرأً يحب البأس والقنص، فكان يقضي يومه في الصيد، فلما رجع في المساء دخل بيته متفاخرا كمحارب مدجج بالسلاح، وكانت مولاته خادمة قديمة في بيته – والخدم القدماء يُعَدّون من أهل البيت – وكانت كاظمة لغيظها منذ الصباح، فلما رأت حمزةَ لامَتْه بشدة وقالت: ألا تستحي، تحمل القوس لصيد الوحوش، ولا تعرف ماذا فُعل بابن أخيك صباح اليوم؟ لقد رأيت وأنا واقفة بالباب أن ابن أخيك كان جالسًا على تلك الصخرة، فأتاه أبو جهل، فلطمه وآذاه وشتمه دون أن يقول لأبي جهل ما يغيظه؛ بل لم يكلّمه رغم لطمه وشتمه. فلما سمع حمزة هذا الكلام مِن فم امرأة خادمة في البيت ثارت حميته، فتوجه إلى الكعبة. وكان رؤساء مكة يجلسون في المساء بفناء الكعبة يتفاخرون فيما بينهم فيكيل لهم الناس المديح. وكان أبو جهل جالسًا في القوم، فأقبل نحوه وضرب رأسه بقوسه بشدة وقال: لقد سمعت أنك ضربت محمدًا (ﷺ) وشتمته أيضًا، مع أنه لم يقل لك شيئًا حتى تسبّه. تظن نفسك بطلاً وتعتدي على الضعيف الذي لا يرد عليك. ها قد ضربتك أمام أهل مكة كلهم، فاضربني الآن إذا استطعت. فهمَّ فتيان القوم ليبطشوا بحمزة ويعاقبوه، ولكن أبا جهل أصيب برعب شديد، فقال: دعوه، فأنا الذي قد اعتديت على ابن أخيه في الصباح. (السيرة الحلبية المجلد الأول ص ٢٩٦-٢٩٧)

وكان النبي ﷺ يصلي في الكعبة مرة، فلما سجد وضع بعض الأشرار على ظهره بين كتفَيه سلا جَزورٍ، فلم يستطع أن يرفع رأسه. وعلمت فاطمة – رضي الله عنها – بذلك، فأتت مسرعة باكية وطرحت هذه القذارة عن ظهره ﷺ (البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا أُلقيَ على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد صلاته)

وفي إحدى المرات كان النبي ﷺ يمر بالسوق بمكة، فاجتمع حوله جماعة من الرعاع، وظلوا يضربون على عنقه ﷺ ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي.

وكان جيران النبي ﷺ يرشقون بيته، ويلقون في مطبخه الأقذار والأوساخ وبقايا أمعاء الخراف والإبل. وكانوا يلقون عليه التراب وهو يصلي، حتى اضطر لأن يصلي مستترًا تحت صخرة ناتئة. ولكنه ﷺ ظل يرفع اسم الله الأحد، ويدعوه لهداية القوم رغم كل هذا الأذى والتعذيب. (الطبري، والسيرة الحلبية)

ولما رأى أهل مكة أن مظالمهم لم تقدر على زعزعة هذا الرجل، قرر الجميع أن يقوموا بمقاطعته وأصحابه ويحاصروهم في شعب أبي طالب أجمعين، فلا يبيع لهم أحد شيئًا ولا يتعامل معهم أبدًا. وبالفعل قاموا بمقاطعته وأصحابه، فعانى الصحابة عناءً كبيرًا حتى اضطروا لأكل أوراق الشجر ونوى التمر، ولم تنتهِ هذه المعاناة في بضعة أيام أو أسابيع أو شهور، بل استمرت ثلاث سنوات على التوالي. وبعد هذه السنوات الشداد قام بعض شرفاء مكة ضد هذا الظلم، فأعلنوا إلغاء المعاهدة وأخرجوا المسلمين من شعب أبي طالب. ولكن مظالم هذه السنوات الثلاث أدت إلى وفاة زوجة النبي الوفية خديجة – رضي الله عنها – حيث تدهورت صحتها نتيجة المقاطعة الطويلة. وبوسع كل إنسان أن يدرك أن تدهور صحة هذه السيدة كان طبيعيًا، إذ كانت من أغنياء مكة وكانت تملك عشرات العبيد، وكانت تُطعم عشرات البيوت، ولكنها اضطرت للفاقة أو أكل أوراق الشجر ونوى التمر نتيجة هذه المقاطعة الاجتماعية، وماتت. ومرت بضعة أيام فتوفي عم الرسول ﷺ أبو طالب أيضًا. (السيرة الحلبية، باب اجتماع المشركين على منابذة بني هاشم... وكتابة الصحيفة، وباب الهجرة الثانية إلى الحبشة، وباب وفاة عمه أبي طالب وزوجته ﷺ خديجة)

ورغم كل هذا الأذى والمعاناة قرر النبي ﷺ فور خروجه من شعب أبي طالب أن أهل مكة إذا كانوا غير مستعدين لتلبية نداء الله تعالى فهو سيخرج لتبليغ رسالة الله للذين يعيشون خارج مكة عسى أن يجد بينهم روحًا سعيدة تستجيب لدعوة الله وترث أفضاله ﷻ. فذهب إلى الطائف وهي مدينة شهيرة تبعد عن مكة قرابة ستين ميلاً. فدعا أهلها إلى الله الواحد، ولكنهم عوضًا عن أن يستمعوا إلى رسالة الله ويقبلوها سلّطوا عليه ﷺ الأولاد، فأخذوا يرشقونه حتى أدموه، كما جرحوا خادمه زيدًا الذي كان يرافقه ويحاول حمايته. ولم يزل هؤلاء الغوغاء يرمونه ﷺ بالأحجار وهو يفر من أمامهم حتى توقف بعد عدة أميال ليلتقط الأنفاس. فأخذ يمسح الدم ويقول: اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون. وكان في الطريق بستان لأحد رؤساء مكة، فتوقف النبي ﷺ فيه للاستراحة، فلما رأى الرئيس ثيابه الملطخة بالدماء أشفق عليه جدًّا، فدعا عبدًا له وأعطاه قطفًا من العنب وقال له مشيرًا إلى النبي ﷺ وزيد رضي الله عنه: اذهب به إليهما. وكان الإرهاق قد بلغ من النبي ﷺ كل مبلغ نتيجة جروحه التي أصابته بيد هؤلاء الأوباش في هذه المطاردة الطويلة، ومع ذلك قال للعبد: من أي البلاد أنت؟ فقال: أنا من نينوى. قال ﷺ: فأنت من قرية أخي يونس. فاستغرب من قوله ﷺ وقال في نفسه: هذا الشخص عربي ومع ذلك يعتبر يونس أخاه مع أنه من سكان نينوى، فسأل النبيَّ ﷺ عن حاله وقال: لماذا يعاملك الناس هكذا؟ فقال ﷺ: أنت من سكان نينوى وأنت تعلم أنه كلما جاء الدنيا مصلح رباني عامله أهلها هكذا. إنني لم أصبهم بسوء، إنما قلت لهم أن يعبدوا الله وحده، ولا يعبدوا الأصنام، وإنني أنصحك أيضًا بهذا. وكان هذا العبد مسيحيًا، فأيقن أن الرجل مبعوث من عند الله تعالى. وكما ورد في الإنجيل عن المسيح عليه السلام أن امرأة جاءته وأخذت "تَبُلُّ قدمَيه بالدموع، وكانت تمسَحهما بشعرِ رأسها" (لوقا ٧: ٣٨)، كذلك خر هذا العبد على قدمي النبي ﷺ ومسح عنهما الدم والتراب بيديه، وقبل يديه من فرط الحب. ولما رجع نهره سيده على ذلك. ولكن قلبه كان قد انشرح للإيمان، فصدق النبي ﷺ ولم تستطع أي معارضة أن تمنعه من اتباعه ﷺ. (السيرة الحلبية: ذكر خروج النبي ﷺ إلى الطائف)

فكم هي عارمة هذه الرغبة في قلب النبي ﷺ من أجل خير الإنسانية! وعلى النقيض نجد في الإنجيل أن امرأة جاءت المسيح وتوسلت إليه أن يساعدها، فقال لها إن هذا التعليم ليس إلا لبني إسرائيل الذين هم أبنائي، و"ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويُطرَح للكلاب" (متى ١٥: ٢٢-٢٦). أما الرسول ﷺ فيأتيه شخص لم يكن من قومه، وجاء عندما كان النبي ﷺ منهكًا بالجروح، ملطخًا بالدماء ومرهقًا للغاية نتيجة فراره من أمام الأعداء لعدة أميال، وكان في مكان يمتلكه عدوه وكان هناك خطر كبير أنه إذا قام بالدعوة ولو قليلا لوقع في بلاء شديد، ولكن بمجرد أن أتاه هذا الشخص الغريب أخذ في دعوته، ذلك لأن العرب والعجم كانوا سواسية عنده، ولم يكن حبه وآلامه للعرب فقط، بل كانت للجميع؛ سواء أكان أبيض أو أسود، مصريًا أو هنديًا. وكان في كل حركة وسكنة له يسعى أن يتيسر للناس الهدى فيرجعوا إلى عتبة الإله الواحد. إن سفر النبي ﷺ إلى الطائف نموذج حي عظيم للتضحية والإيثار حتى إن مستشرقًا مثل السير وليام موير أيضًا لم يملك نفسه من أن يتأثر به، فاضطر لأن يقول في كتابه "حياة محمد" ما تعريبه:

"إن سفر محمد (ﷺ) إلى الطائف كان مثالاً رائعًا للشجاعة. فإن شخصًا وحيدًا محتقرًا مطرودًا من قِبل قومه يخرج بكل شجاعة مثل يونان النبي نبيِّ نينوى إلى مدينة وثنية ليبلّغ أهلها رسالة الله ويدعوهم إلى التوبة. إن هذا الأمر لدليلٌ بيّنٌ على أنه كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأنه مبعوث من عند الله تعالى". (Life of Mohamet p. 117)

وبعد عودته من الطائف عاد أهل مكة إلى إيذاء النبي ﷺ والاستهزاء به، ولكنه ظل ينهاهم بلطف ومحبة عن عبادة الأوثان. كان الناس يفرون منه، ولكنه كان يذهب وراءهم ويدعوهم، وكانوا يعرضون عنه، ولكنه ظل يعظهم وينصحهم. وفي الأخير اضطر النبي ﷺ بسبب مظالمهم المستمرة إلى أن يترك في ظلام الليل وطنه الذي كان بدأ دعوة أهله إلى الإسلام لأول مرة وظل يدعوهم إليه لمدة ثلاث عشرة سنة. فخرج منه سرًّا ووصل إلى المدينة، ولكن الأعداء لم يدَعوه ليعيش هناك في سلام، بل ظلوا يشنون الغارات على المدينة بين فترة وأخرى. لقد اضطر النبي ﷺ وأصحابه لأن يخوضوا حوالي مئة وعشرين معركة، واستُشهد فيها مئات

من صحابته وأقاربه ﷺ. ولكنه لم يبال أبدًا بأي مصيبة أصابته في سبيل إعلاء اسم ربه الأحد. فلم يزل يبلغ الناس رسالات الله في الصباح وفي المساء وفي آناء الليل وأطراف النهار، ولم يتردد في تقديم أية تضحية من النفس والنفيس أو المشاعر والعواطف أو الأعزة والأقارب. كانت ابنتاه ﷺ متزوجتين من ابني أبي لهب، فهدده أنه إذا لم ينته عن تعليم وحدانية الله فإنه سيأمر ابنيه بأن يطلّقاهما، ولكن النبي ﷺ لم يبال بذلك، فأمر الشقي ابنيه فطلقا ابنتيه ﷺ. (أسد الغابة: رقية بنت رسول الله ﷺ)

وكان النبي ﷺ أول هدف للعدو في كل وقت حرج، ولكنه في كل مرة كان يلقي بنفسه في نيران الأخطار ببسالة نادرة وكأنه لا يقيم لنفسه قيمة. فخلال معركة أُحد أصابه حجرٌ في رأسه فدخلت مسامير خوذته في رأسه، فأغمي عليه وسقط على جثث صحابته الذين كانوا قد استُشهدوا دفاعًا عنه، ثم سقطت على جسمه الأطهر جثث الصحابة الآخرين وغطته، فظن القوم أنه قد استُشهد، ولكنه ﷺ لما أُخرج من تحت الجثث وعاد إليه الوعي، لم يأبه لجراحه، ولا بكسر أسنانه، ولا باستشهاد أقاربه وأصحابه، بل بمجرد أن أفاق دعا ربه وقال: "اللهم اغفِرْ لقومي فإنهم لا يعلمون". (مسلم: كتاب الجهاد، باب غزوة أحد)

وكذلك ورد في الحديث أن الأعداء لما أدموا النبي ﷺ بالأحجار في الطائف وكان يجري أمامهم طرأت عليه حالة من الكشف وظهر له ملَك الجبال وقال له: لو شئتَ لأطبقت على أهل الطائف الجبلين اللذين يكتنفانها، فقال رسول اللّه ﷺ: لا، إنما فعلوا بي ما فعلوا نتيجة جهلهم، وإني لأرجو أن يخرج اللّه من أصلابهم قومًا خادمين للإسلام. (البخاري: كتاب بدء الخَلق، باب إذا قال أحدكم آمين) *

وهذا ما أكده الواقع، فبرغم أن هؤلاء الأعداء قد سموا النبي ﷺ مجنونًا وكاهنًا وساحرًا وكذّابًا، ولم يألوا جهدًا في القضاء على دعوته، ولكن قد خرج منهم في

* نص ما قاله النبي ﷺ بحسب المرجع المشار إليه هو: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا." (المترجم)

نهاية المطاف قوم سعداء آمنوا بالحق بشجاعة، وخرجوا لنشر الإسلام واضعين أرواحهم في أكفّهم، ونوروا كل أنحاء العالم بنور الإسلام في فترة قصيرة.

إذًا، فإن قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى المحبة النادرة التي كان يكنّها النبي ﷺ للإنسانية، وقد بين الله تعالى بذلك أنه ﷺ كان يسعى ويدعو لهداية الناس آناء الليل وأطراف النهار حتى كاد يُهلك نفسه حزنًا عليهم، حيث كان لا يهتم من أجل راحتهم بطعامه ولا بشرابه ولا براحته. كان يقوم بالليل ويبكي ويبتهل أمام ربه لإنقاذ الناس من الغي والضلال وهدايتهم إلى طريق النجاة والسلام حتى تتورم قدماه من طول القيام. (البخاري: أبواب التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى ترِم قدماه). فكما أن الإنسان يذبح الكبش بكل شدة أحيانًا حتى تصل المُدية قفا الذبيحة بحيث لو اشتد في ذبحها قليلاً لانفصلت عنقه تمامًا، كذلك لم يدخر النبي ﷺ وسعًا في ذبح نفسه من أجل الإنسانية، وإذا كان لم يُهلك نفسه فليس سببه أنه قصر في التضحية بنفسه، وإنما سببه أن الله تعالى قد قام بحمايته على وجه خاص، وإلا فإنه ﷺ لم يقصر في إزهاق نفسه من أجل الإنسانية.

وفي هذه الخصوصية المميزة للنبي ﷺ درس عظيم للمؤمنين، حيث نبههم الله تعالى أنهم إذا كانوا يريدون الرقي والازدهار فعليهم أن يرفعوا مستوى تضحياتهم بحيث يعتبرها العدو انتحارًا صريحًا، في حين أنكم تعلمون أنه ليس انتحارًا بل هو سرّ خلودكم. يقول الله تعالى في القرآن الكريم في معرض الحديث عن غزوة أُحد إن المنافقين: ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ﴾(آل عمران: ١٦٨).. وهذا لا يعني أنهم كانوا لا يعلمون أن القتال سيقع، بل الواقع أنهم كانوا يشيرون على المسلمين أن لا يخرجوا من المدينة للقتال، وقد استمر هذا النقاش يومين كاملين، وهذا يعني أن المنافقين كانوا يعتبرون القتال خارج المدينة انتحارًا، وإنما كانوا يعنون بقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أن قتال العدو خارج المدينة ليس حربًا عندنا إنما هو انتحار، ولذلك لم نشترك فيه. فثبت من ذلك أن الله تعالى يأمر جماعته المؤمنة بما يعتبره الناس انتحارًا حيث يطالبهم بالتضحية بكل غال ورخيص من نفوس وأموال وأوقات وشرف وكرامة حتى يقول الناس إن هؤلاء قد أصبحوا مجانين حيث

يقدمون هذه التضحيات الجسيمة، ويقول المنافقون عنهم إن هؤلاء قوم سفهاء ويريدون منا أن نكون أيضًا سفهاء مثلهم حيث يدعوننا أن نقدم التضحيات مثلهم. فالأعداء والمنافقون كلهم يعتبرون تلك التضحيات هلاكًا وانتحارًا، ولكن المؤمنين يعلمون أنها ليست انتحارًا بل فيها تكمن حياتهم الخالدة.

فالله تعالى لم ينبهنا بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ إلى خصوصية مميزة للنبي ﷺ ونموذجه النادر للشفقة على خلق الله تعالى فحسب، بل أيضًا قد أوصى المؤمنين أنهم إذا كانوا يريدون قرب الله تعالى فعليهم أن يرفعوا مستوى تضحياتهم بحيث يقول العدو إن هؤلاء يقطعون أعناقهم بأنفسهم، ويظن الجميع أنهم يُلقون أنفسهم في فم الموت. هذا هو المقام الذي يجب أن تصبو إليه الجماعات الإلهية، إذ لا خلود لها بدون ذلك.

إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

أعناقهم: الأعناق جمعُ العنق وهو: وصلة ما بين الرأس والبدن يذكَّر ويؤنَّث؛ الرؤساءُ؛ الجماعةُ من الناس. (الأقرب)

خاضعين: جمعُ خاضِعٍ، يقال: خضَع له: انقاد. (الأقرب)

مُحدَث: المحدَث: نقيضُ القديم. (الأقرب)

التفسير: أي لو شئنا لأنزلنا عليهم عذابًا يخضع أعناقهم ويقهرهم على الإيمان بمحمد رسول الله (ﷺ)، لكن هذا الإيمان لا ينفع صاحبه، إنما ينفعه إذا آمن ما دام

الخير والشر كلاهما خافيَين عليه. ذلك أن المرء لا ينال جزاء إذا آمن بشيء يراه عيانًا؛ فالشمس مثلاً شيء نافع، ووجودها أمر قطعي لا مراء فيه، ولكن المرء لا يستحق أي جزاء على تصديقه بوجود الشمس.

ولو قيل: ما دام الإنسان يُجزى بإيمانه بمحمد، فلم لا يُجزى بإيمانه بوجود الشمس؟ لقلنا: إن المرء يستحقّ الإنعام على إيمانه به ﷺ لأن معرفة صدقه ﷺ إنما تتيسر له نتيجة البحث والاجتهاد والتضحية، بينما إيمانه بوجود الشمس لا يتطلب منه بحثًا ولا جهدًا ولا تضحية، لأن وجودها أمرٌ بيّنٌ وقطعيّ، فلا ينال أي جزاء على التصديق بوجودها.

ولو قيل: كان المؤمنون بمحمد (ﷺ) في عصره قدّموا التضحيات فاستحقوا الجزاء، ولكن الذين أتوا بعده لا يضطرون لتقديم أي تضحية، فكيف يستحقون الجزاء؟ فالجواب: لا شك أن المسلمين بالمولد لا يقدّمون في سبيل الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ تضحية كالتي قدمها أصحابه، ولكنهم يقدّمون التضحيات في كل حين حفاظًا على إيمانهم، إذ تنشأ في قلوبهم أسئلة عديدة حول أحكام الإسلام، فيتساءلون: لماذا نعمل بكذا، ولماذا نطيع كذا؟ فيضطرّون لإعمال الفكر في الحِكم الكامنة وراء الصلاة والصوم والحج والزكاة ليعرفوا الجواب على التساؤلات الناشئة في قلوبهم. كما أنهم يجتهدون ويضحّون بكثير في كل حين للعمل بهذه الأحكام. إذًا فلا أحد من المسلمين مستثنى من تقديم التضحية. لقد قدم الصحابة التضحيات في سبيل الإيمان والإسلام، أما الذين جاءوا بعدهم فيقدمون التضحيات حفاظًا على إيمانهم.

فبما أن الجزاء الإلهي إنما يُنال بتقديم التضحيات، فمن سنة الله تعالى أنه لا يُظهر أبدًا أية آية تبلغ من الوضوح والجلاء بحيث تخضع أمامها أعناق المعارضين الألداء فلا يبقى لهم مجال للإنكار، فيبادرون إلى الإيمان. ذلك لأن مثل هذا الإيمان سيُعَدّ نوعًا من الجبر والإكراه من قبل الله تعالى، والله لا يحب أن يؤمن الناس قهرًا، فيُحرَموا ما كتب لهم من الجزاء والنعم.

إنه لمن المؤسف أن نجد من المسلمين من خاضوا النقاشات حول إمكانية الجبر والقدر أو عدمه برغم وجود مثل هذه الآيات الصريحة المخالفة لعقيدة الجبر والإكراه، فاعتقدوا أن الله تعالى يمارس الجبر في بعض الأمور. فمثلاً لو قلت اليوم لمسلم: ما هو سبب مشاكل المسلمين لتنفّسَ الصعداء وقال: هذا هو المكتوب في القدر، وهكذا يلقي المسؤولية على الله تعالى، ولن يقول إنما سبب مصائبنا أننا قد وقعنا في شتى النقائص والعيوب، تاركين العمل بأحكام القرآن الكريم ووصايا الله وتعاليم الرسول ﷺ. بينما تصرح هذه الآية أن الله تعالى لو أراد قهر الناس لأجبرهم على الخير والهدى ولأنـــزل آيات واضحة جلية تخضع لها أعناق أشدهم كفرًا، فيضطرون للإيمان. ولكن الله تعالى لا يفعل هكذا أبدًا.

إنه تعالى إنما يُنـــزل الآيات التي تنطوي على عنصر الخفاء والستر أيضًا، ليؤمن الناس بالسعي والجهد والبحث، فيجزيهم بقدر سعيهم وجهدهم. المؤسف أنه يوجد لدى المسلمين اليوم مفاهيم خاطئة عن آيات الله تعالى. فذات مرة عقد المشايخ غير الأحمديين مؤتمرًا في قاديان، فقال أحدهم في خطابه بكل حماس: كيف يدعي المرزا (أي مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية) أنه نبي؟ الواقع أن معجزاته لا تساوي شيئًا. إنما المعجزة ما أظهره سيدي عبد القادر الجيلاني، حيث أهداه شخص فرخًا مشويًا، فلما فرغ من أكله قال له: لقد عملتَ بنا معروفًا، ونريد الآن أن نعمل بك معروفًا. ثم أخذ عظام الفرخ في يده وضغط عليها بشدة، فخرج منها ديك يصيح.

الحق أن هذه القصص لم تَلق رواجًا بين المسلمين إلا لأنهم قد غضّوا الطرف عن سنة الله في المعجزات. إنهم لا يدرون أن المعجزات لو ظهرت جلية واضحة هكذا فمن ذا الذي يمكنه إنكار النبي؟ وإذا آمن المرء برؤية مثل هذه الآيات الواضحة الجلية فمن ذا الذي يمكنه القول إنه قد قدّم تضحية عظيمة في سبيل إيمانه وأنه يستحق الجزاء؟

مجمل القول إن الله تعالى قد بيّن هنا أنه لا يُظهر أبدًا الآيات التي تبلغ من الوضوح والجلاء بحيث تخضع لها أعناق الكفار فيؤمنون، لأن مثل هذا الإيمان يُعَدّ نوعًا من الإكراه في الواقع، والله لا يحب الإكراه في الدين.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.. أي كلما أتت الناس رسالة جديدة من الله الرحمن رفضوها، فكيف يقبلونها هذه المرة؟ علمًا أن لفظ ﴿مُحْدَثٍ﴾ – أي جديد – لا يعني هنا أن كل نبي يأتي بشريعة جديدة، بل المراد أن ذكرَ الله أو رسالته تكون خافية عن الأعين عند بعثة أي نبي، حيث ينسونها ويغفلون عنها لدرجة أنهم يظنون ما أتى به النبي جديدًا أي بدعًا ويفرّون منه خوفًا، مع أنه ضالّتهم المنشودة. وقد أطلق الله تعالى لفظ ﴿الحديث﴾ بهذا المعنى على الصحف السماوية السابقة أيضًا وذلك في معرض بيان فضل القرآن الكريم على غيره من الصحف حيث قال تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾(الزمر:٢٤).. أي أن الله تعالى هو الذي قد أنزل بكل قوة وعظمة هذا الكتابَ الذي هو أحسن الحديث.. أي أفضل الصحف السماوية كلها. إذًا، فكل الأنبياء الذين ظهروا في الدنيا قد أتوا برسالة جديدة بهذا المعنى، فمنهم من أتى برسالة جديدة من حيث إنه جاء بشرع جديد وهدي جديد فعلاً، بينما جاء أكثرهم برسالة جديدة من حيث إنهم قدّموا للناس في كؤوس جديدة نفسَ الشراب القديم الذي منبعه نور الله تعالى. بيد أنه لم يحدث قط أن جاء رسول إلى الدنيا فلم يعرض أهلها عنه، و لم يتخذوه هدفًا لصنوف الأذى. الواقع أن الله تعالى يدير هذا الكون وفق نواميسه العامة عادة بحيث لا نرى يد الله تعالى متجلية لنا في بادئ النظر. لقد دفع الله تعالى عجلة الكون في بداية خلقه، فأخذت الأرض تدور حول الشمس وأخذ القمرُ يدور حول الأرض، وبدأ النظام الشمسي كله يدور متوجهًا إلى جهة مجهولة. وكل من يرى الكون في بادئ الرأي يظن أنه خُلق صدفة، وليس له خالق ولا مدير، لأنه يرى فيه قانونًا ثابتًا يمشي بحسبه. والحق أن مثل هذا الرائي كمثل شخص لم ير ساعة حائط تُعبَّأ بالمفتاح بعد كل أسبوع مثلاً، فيدخل بيتًا لا يسكن فيه أحد، ويجد على الحائط ساعة تتحرك، فيظن أنها تتحرك

من تلقائها، وليس هناك من عبأها، اللهم إلا أن يحين وقت تعبئتها بالمفتاح أو أن تتوقف عن الحركة فيعبئها أحد، أما فيما بين هاتين الفترتين فلا يمكنه أن يتصور أنها لا تتحرك إلا لأن أحدًا قد عبأها من قبل. وبالمثل فإن الله تعالى قد عبأ هذا الكون بالمفتاح فبدأ عمله، ولا يزال يعمل منذ بلايين السنين؛ فيظن الرائي الجاهل بالحقيقة أنه يدور من تلقائه مثل الذي يظن أن الساعة تعمل من تلقائها، اللهم إلا أن يكون عنده العلم بحقيقة الأمر. ولكي يُبرهن الله ﷻ على ألوهيته يُظهر، بالإضافة إلى نواميسه العامة، أمورًا أخرى غير عادية من حين لآخر، وهذه الأمور غير العادية هي التي تؤكد أن هناك خالقًا ومالكًا لهذا الكون. وكما أن الجاهل الذي يظن أن الساعة تدور من تلقائها دون أن يعبئها أحد، فيأتي صاحب الساعة ويعبئها بالمفتاح ويضعها في مكانها، فيدرك هذا أنها تتحرك بتحريك صاحبها، كذلك تمامًا يكشف الله وجوده على الدنيا من خلال صفاته الخاصة، التي تتجلى من خلال من يبعثه تعالى من الرسل والمصلحين. ومن البديهي أن الله تعالى لا يتدخل في أمور أهل الدنيا إلا لسبب، وإنما يتدخل في شؤون العباد عندها لأنه يراهم قد ابتعدوا عنه ونسوه وأخذوا يسخرون من أحكامه، فيبعث من عنده المرسلين والمأمورين ليذكّرهم الله بنفسه. والمرسل أو المأمور إنما يأتي الدنيا في الزمن الذي يكون الناس قد نسوا فيه ربهم، وإذا نسي المرء شيئًا فتوجيهه إليه ثانية أمر صعب جدًّا، إذ يكون قد اتخذ طريقًا مخالفًا نتيجة هذا النسيان، بينما يريد المرسل الرباني إبعاده عن الطريق الذي قد اعتاده ورسخ فيه، وتوجيهه إلى طريق جديد، وإذا أراد المرء إبعاد أحد عما رسخ عنده من العادات لم يعتبره صديقًا بل عدوًّا له. فمثلاً من العادات الراسخة عند أهل الهند أن النساء يمضغن "بان"*، مع أنه ليس ضروريًا في الحياة، إذ لا يزيدهن علمًا ولا مالاً؛ ومع ذلك لو نصحهن أحد بترك

* "بان" في الأصل اسم شجرة هندية. يلفّون في ورقها بعض البهارات مثل الهيل وغيره مع حلويات معطرة، ويضعونها في الفم، فتنظف الفم وتعطره، كما تفرّح القلب. (المترجم)

"بان" رفضن قوله وأصررن على تناوله. بل لو طلبت من الناس التخلي عن تقليد عادي لقاموا لمعارضتك. وعلى سبيل المثال، إن النساء في القرى عندنا يدّهنّ رؤوسهن بالزبدة، وفي المدن يدّهنّ بالزيت، أما الأوروبيات فلا يستعملن الزبدة ولا الزيت بل بعض الغسولات. وادهان الرأس بالزبدة ليس ضروريًا في الحياة وإلا فكيف يكفي الادهان بالزيت أو الغسول فقط؟ إن استغناء البعض عن الادّهان بالزبدة والبعض الآخر عن الزيت والبعض الثالث عن الزبدة والزيت كليهما، يشكّل دليلاً على أنه يمكن التخلي عن هذه الأشياء كلها. ومع ذلك لو حاولت منع نساء القرى عن الادّهان بالزبدة فلربما تطلَّبَ ذلك سنوات حيث يجادلنك بقولهن: إذا لم ندهن بالزبدة أصابنا الصداع أو الزكام، وسوف يعارضن قولك بشدة باعتبارك حجرًا يعيق طريق حياتهن. فثبت بذلك أن منع الناس من العادات البسيطة أيضًا ليس بأمر سهل. أما المصلح المبعوث من عند الله تعالى فإنما يأتي ليقلب العالم كله، ويسعى لصدّ الناس عن تقاليدهم وعاداتهم، فكيف ينجو من المعارضة؟ ومن أجل ذلك كلما بُعث مصلح سماوي استهزأ به الناس وسخروا منه، وضربوه وأصحابه. وهذه هي السنة المستمرة منذ القدم. فمثلا كان أهل مكة يؤمنون بآلهة كثيرة لدى بعثة النبي ﷺ، فلما أعلن بينهم أن الله واحدٌ أحدٌ استغربوا من قوله مستهزئين كما هو مذكور في القرآن الكريم. وإذا لقي بعضهم بعضًا قال: أتؤمن بأن اللات إله؟ فقال الآخر: نعم، إنه إله. فقال: أتؤمن بأن مناة إلهٌ؟ فأجاب: بكل تأكيد. فقال: هل تؤمن بأن العُزّى إله؟ قال: نعم، يقينًا. فكان صاحبه يضحك عاليًا ويقول: هل سمعت ما يقول هذا الرجل؟ لقد جعل جميع الآلهة إلهًا واحدًا. ذلك أن الكافرين كانوا يظنون أن محمدًا (ﷺ) قد خلط الآلهة كلها وجعل منها إلهًا واحدًا، مثلما تفعل المرأة عندنا حيث تأخذ شيئًا من الملح والفلفل والنعناع وتطحنها وتخلطها وتصنع منها طحينة. وقد ورد في القرآن الكريم أنهم قالوا مستغربين: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ص:٦). فكان من المستحيل عليهم أن يتصوروا أن هذه الأصنام ليست بآلهة في الحقيقة. ولذلك كلما قيل لهم: إن الله

واحد، ظنوا وكأن هذا قد قام بخلط الآلهة كلها وجعل منها خليطًا يسميه إلهًا واحدًا. فكانوا يضحكون فيما بينهم على فكرة الإله الواحد ويعتبرون النبي ﷺ مجنونًا. ولكنك لو طرحت فكرة الآلهة العديدة على مسلم اليوم لضحك هو الآخر. لأنه موقن بأن الله واحد وقد أصبحت هذه الفكرة راسخة عنده؟

إذًا، فكلما عرض نبي من أنبياء الله ﷻ على أهل عصره أي فكرة هبّوا لمعارضته لكونهم معتادين على ما ترسخ عندهم. فعندما جاء آدم عليه السلام عامله المعارضون بالغش والخداع، فاضطر للخروج من المكان الذي كان مولده ووطنه، والذي بُعث لهداية أهله من عند الله تعالى. ولما جاء نوح عليه السلام أوذي بصنوف الأذى حتى اضطر للهجرة من بلده. ثم أتى إبراهيم عليه السلام، فأُلقي في النار. وجاء موسى عليه السلام، فتعرض لمحن شتى من قبل فرعون مدة طويلة، وقد شُقّت رؤوس بعض بني إسرائيل بالمنشار كما ورد في الحديث. ولما جاء عيسى عليه السلام علّقه الأعداء على الصليب، وآذوا خلفاءه وحوارييه أيضًا، فقتلوا بعضًا وصلبوا بعضًا. ثم جاء النبي ﷺ، فواجهَ أشد المحن والمصائب، وتعرض العديد من صحابته للقتل والمُثْلة، وقتل الكافرون بعضًا منهم شر قتلة حيث ربطوا رجليه ببعيرين ثم ساقوهما في اتجاهين مخالفين، فشقّوه نصفين؛ وألقوا بعضهم على الرمال المحرقة، وجرّوا بعضهم على الأحجار الصلبة، ورقصوا بالنعال على صدور بعضهم، وقتلوا بعض المسلمات بالطعن في فروجهن. (انظر البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى أطّلع الغيب، والإصابة، تحت: حمزة وخبّاب بن الأرتّ، وأسد الغابة، تحت: بلال بن رباح وعمار بن ياسر وخبّاب بن الأرتّ، والسيرة النبوية لابن هشام: ذكر عدوان المشركين على المستضعفين، والكامل في التاريخ: ذكر تعذيب المسلمين)

فقد لجأ الكافرون في زمن النبي ﷺ إلى كل نوع من أنواع الأذى والتعذيب التي عذب بها أعداء الأنبياء أصحابهم في الماضي، و لم يقبلوا رسالته ﷺ.

وهذا ما حصل اليوم عند بعثة المسيح الموعود عليه السلام أيضًا، حيث سعى المعارضون للقضاء عليه بطرق شتى، وما ذلك إلا لأنه كان يدعوهم إلى ما كان يتنافى مع أفكارهم البالية، وكان يريد أن يحدث تغييرًا في نفوسهم. عندما أعلن حضرته عليه السلام دعواه كانوا يعتقدون أن المسيح الناصري عليه السلام سيعود إلى الدنيا ثانية، وسيقوم

بنهب كل أموال غير المسلمين ويضعها في أيدي المسلمين. ولكن لما جاء المسيح الموعود عليه السلام أعلن أن عيسى عليه السلام قد تُوفي. ولم يكن في هذا الإعلان غرابة في الظاهر، فكل إنسان يأتي إلى الدنيا يموت أخيرًا، وقد جاء عيسى عليه السلام إلى الدنيا ومات وفق هذه السنة الإلهية. ولكن هذا الإعلان وجّه صدمة عنيفة إلى تصورات المسلمين التي كانوا يحملونها حول البعثة الثانية للمسيح، فقالوا: هذا يعني أنه لن يأتي أحد لقتل المسيحيين، ولن يبعث أحد لإهلاك الهندوس، ولن يجيء أحد للقضاء على السيخ، ولن توزع ثروة أمريكا وأوروبا على المسلمين بل سيظلون ضعفاء كما كانوا من قبل، إلا أن يبذلوا الجهود والتضحيات فيتقدموا.. إذًا فهذا لم يكن مجرد إعلان عن موت المسيح، بل قد دُفن به المسلمون في القبور وهم أحياء. لقد كان خيبةً لآمال المسلمين الذين كانوا يجلسون في البيوت عاطلين ظانين أن ثروة الرئيس الأمريكي ستوهب لفلان، وأن أموال روكفيلر (Rockefeller) ستوضع في يد فلان. لقد خابت آمالهم كلها وخُيّل إليهم أنهم قد ماتوا وهم أحياء. فبرغم أنه كان تعليمًا بسيطًا فيما يبدو، ولكنه وجه إلى أفكار المسلمين صدمة عنيفة لم يصبروا عليها، فانبروا لمعارضة المسيح الموعود عليه السلام. لقد كانوا يُدعون إلى السعي والعمل فكانوا يقولون: ما الحاجة للعمل؟ سيأتي المسيح وسينهب أموال الكافرين ويملأ بها بيوتنا. ولكن مجيء مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية كان خيبة لآمالهم كلها، حيث قال لهم: ليس لكم إلا ما تسعون له، فأنتم الذين ستقاتلون، وأنتم الذين ستموتون، وأنتم الذين ستجتهدون وعندها ستحرزون الرقي والغلبة. وهذا يعني أنهم قد أُمروا ببذل السعي والجهد والتضحية لينالوا ما كانوا يتوقعونه جالسين في البيوت عاطلين. لقد قيل لهم إنهم يضيعون حياتهم الغالية عبثًا من جراء أفكارهم الخاطئة. فكان من الطبيعي أن يغضبوا على مؤسس الجماعة عليه السلام ويهبّوا لمعارضته. وكأن ما حصل معهم هو كمثل شخص يقول لصاحبه لقد أعددتُ الوليمة لجميع عائلتك اليوم، فعليك أن تحضر معهم في ساعة كيت. وعندما يحين موعد الطعام يبلَّغ أن صاحبه قد خدعه إذ لم يعدّ لهم أي طعام، فيثور غضبًا لأنه جائع وأولاده يبكون من شدة الجوع. فتأخذ زوجته في عجن العجين؛ وتحاول إيقاد النار؛ وكل

واحد متضايق ويصرخ: ما هذه المصيبة؟ متى يجهز الطعام ومتى سنأكل؟ هذا ما حدث بالضبط لدى بعثة المسيح الموعود عليه السلام. فقد قيل للمسلمين من قبل أن الله تعالى قد أعدّ لكم وليمة لن تعملوا فيها شيئًا سوى الأكل؛ سيأتي المسيح من السماء وينهب ثروات الناس ويملأ بها بيوتكم. وكان المسلمون جالسين في بيوتهم مطمئنين ظنًّا منهم بأن لا حاجة بهم إلى تعلُّمٍ وتعليم وكسب مال ولا سعي ولا تضحية، سيأتي المسيح ويأخذ بهم فجأة إلى قمة الرقي والازدهار. وبسبب هذه العقيدة أصبحوا محرومين من العلم والتقدم والعز والشرف، وضُربت عليهم الذلة والمسكنة والنكسة، فجاء المسيح الموعود عليه السلام وقال لهم: ليس لكم إلا ما تسعون، ومن الخطأ الفاحش أن تعقدوا الآمال على سواكم. يمكنك أن تقدّر مدى صدمة المسلمين من قوله. إنك إذا لم تجد الطعام لوقت واحد، أو لو قال لك أحد مستهزئًا: لقد أعددت لك ولعائلتك مأدبة طعام الليلة، وعندما يحين وقت الطعام وحينما يكون أولادك يتضورون من الجوع، عرفت أن هذا الشخص قد سخر منك، فاضطررت لإعداد الطعام، فيمكنك أن تقدر مدى غيظك. وأي شك في أن استياء المسلمين وغضبهم بسبب إعلان المسيح الموعود عليه السلام كان أشد من غيظك بملايين المرات، ذلك لأنهم مع أجيالهم كانوا يعقدون الآمال على المسيح الذي سيأتي ويوزّع عليهم أموال النهب والسلب.

وليس هذا فقط، بل كانت ثمة عشرات القضايا الأخرى التي كانت سبب نـــزاع بين المسلمين، فحينًا كانوا يختصمون على رفع اليدين في الصلاة، وحينًا على الجهر بـــ "آمين" في آخر الفاتحة، وتارة كانوا يتشاجرون على رفع السبّابة أثناء التشهد، وأخرى كانوا يتقاتلون على ربط الأيدي على الصدر أو تحت السرة. فجاء المسيح الموعود عليه السلام وأنهى كل هذه النـــزاعات بإعلانه أن الخصام على هذه الأمور البسيطة عبث. فحينًا قد جهر النبي الكريم ﷺ بآمين لنفخ الحماس في القوم، وقد خفض بها صوته أيضًا في الأحيان الأخرى، وتارة ربط يديه على صدره في الصلاة حفاظًا على روح القتال والبطولة فيهم، وتارة أخرى ربطهما تحت السرة تواضعًا وتذللاً. وفي بعض الأحيان رفع السبابة وقت التشهد، ولم يرفعها أحيانًا

أخرى، لأن رفعها في التشهد هو بمثابة الإقرار بوحدانية الله تعالى، وهذا جائز على الطريقتين، ولا تفسد الصلاة سواء أرُفعت السبابة فيها أم لم تُرفع. الواقع أن الرسول ﷺ لما رأى أن عقيدة التوحيد لم ترسخ بعد في قلوب بعض العرب أمر برفع السبّابة في الصلاة، ولكنه لم يرفعها في بعض الأحيان؛ ولا حرج إذا لم يرفعها من هو متمسك بعقيدة التوحيد بقوة. ولكن المسلمين قد ركزوا على هذا الأمر أكثر من اللازم حتى قطعوا أنامل الذين لم يرفعوا السبابة وقت التشهد.

ثم إنهم اعتقدوا خطأً أن في القرآن الكريم آيات عديدة هي منسوخة (القرطبي: قوله تعالى: ما ننسخ من آية)، ولكن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام جاء فأعلن أنه لا توجد في القرآن الكريم أية آية منسوخة مطلقًا، بل إن كل حرف من القرآن الكريم من ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إلى ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ قابلٌ للعمل. (إزالة أوهام (أردو)، الخزائن الروحانية المجلد الثالث ص ١٧٠)، فبدلاً من أن يشكره عليه السلام المسلمون على هذا التعليم العظيم الذي يكشف جمال القرآن وعظمته، أخذوا في معارضته إذ كان متعارضًا مع ما رسخ عندهم من أفكار خاطئة؛ فأثار المشايخ من أقصى الهند إلى أقصاها زوبعة من السباب والشتائم، وأفتوا بكفره وارتداده وإلحاده وقتله. (جريدة "إشاعة السنة النبوية" المجلد ١٤، عدد ١ ص ٥ وعدد ١٠ ص ٢٩٨، والمجلد ١٥ عدد ٧ ص ١٤١)

إذًا، فكل فترة من تاريخ الأنبياء تشهد على صدق قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.. أي كلما جاء قومًا نبيٌ برسالة فيها حياتهم استهزءوا به وحاولوا القضاء عليه، معرضين عن رسالته.

ويقول الله تعالى بعد ذلك ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.. أي أن هؤلاء قد كذبوا بالحق، فستتحقق أنباؤنا العظيمة عن الأمور التي كانوا يستهزئون بها، وسيعلمون خطورة كفرهم بمحمد رسول الله (ﷺ). وقد قال تعالى هنا إنه سيأتيهم أنباؤنا المتعلقة بالعقاب لأنه سبق عند نهاية سورة الفرقان أن حذّر الكافرين بقوله ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾(الفرقان:٧٨).. أي أن الله تعالى لن يبالي بكم إذا لم تدعوه وتبتهلوا إليه. وهذا يعني أن الكافرين إذا لم

يتوبوا فسوف ينـــزل عليهم العذاب ويدمَّرون. وبما أن الكافرين ظلوا يستهزئون بنبأ العذاب الوارد في آخر سورة الفرقان معرضين عن رسالة محمد ﷺ، فأخبر الله هنا أن أنباءنا بصدد الأمور التي يستهزئون بها ستتحقق الآن وسيعلمون أن ما قال لهم رسولنا كان صدقًا وحقًّا.

علمًا أن العلامة أبا البقاء قد قال إن لفظ "النبأ": "لم يرد في القرآن الكريم إلا لما له وقع وشأن عظيم" (كليات أبي البقاء: فصل النون ص ٣٥٤). وبما أنه ليس ثَمَّةَ خبر هو أكبر وأعظم من غلبة الإسلام، فإن لفظ ﴿أنباء﴾ الوارد هنا إنما يُعتبر إشارةً إلى تلك الأنباء القرآنية التي تحدثت عن هلاك الكفر وغلبة الإسلام، فظل الكافرون يستهزئون بها مغترّين بقوتهم ومنعتهم، ولكن لم تمض أيام حتى رأوا أن العبيد الذين كانوا يجرّونهم في الطرق ويلقون على صدورهم أحجارًا ثقيلة ليقهروهم على عبادة اللات ومناة، قد دخلوا في مكة ممتطين جيادهم وملوّحين برايات الفتح والظفر. فلم يملك عندها صناديد مكة إلا أن يختفوا في بيوتهم أو يفرّوا من مكة. إذًا، فقد تحققت بالفعل أنباء هلاكهم، وانتشر الإسلام في كل شبرٍ من الجزيرة العربية، وقد انتشر اليوم في كل بقاع العالم، ولن يزال في الانتشار والازدهار في المستقبل أيضًا بفضل الله تعالى.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

زوج: الزوج: كلُّ واحد معه آخرُ مِن جنسه. (الأقرب)

التفسير: أي ألم يفكّر هؤلاء القوم كيف أخرج الله تعالى من الأرض أنواع الخضار والثمار وغيرهما؟ ولو أنهم فكروا لعلموا أن الله تعالى فاعلٌ الشيء نفسه في الدين أيضًا حتمًا، وسينعم على الناس بنعم عظيمة تغذّي الروح، وسيُخرج من بين الناس عبادًا روحانيين عظماء ناصحين يواسي بعضهم بعضًا. لا شك أن هؤلاء الكافرين لا يلبّون الآن نداء الله تعالى إلا أن ربك عزيز رحيم، ولا بد أن يهيئ الأسباب لتوطيد حكمه في الدنيا لتنفع رحمته عباده فترة طويلة.

وقول الله تعالى ﴿أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ يمثّل إشارة إلى أن النباتات كلها أزواج.. أي بعضها ذَكر وبعضها أنثى، ولقاحهما ينتج الثمار والغلال. ولذلك نجد علماء الزراعة ينصحون بتربية النحل في البساتين لأنها خلال انتقالها من شجرة إلى أخرى تأخذ حبوب الطلع المذكرة من الشجر إلى إناثها وتلقحها، فيكثر الثمر. وكان العرب يعلمون هذه الحقيقة عن شجر النخل، فكانوا يقومون بتأبيرها، ولكن النبي ﷺ كان لا يعلم ذلك، رأى ذات مرة بعض المسلمين يؤبّرون النخل، فقال لهم: ماذا تفعلون؟ قالوا: نلقح ذكور النخل بإناثها ليكثر الثمر. فقال ﷺ: ما الفائدة في ذلك؟ إنها ستثمر ما كُتب لكم في كل حال. فتركوا التأبير، فلم يأت الثمر جيدًا. فأتوا النبي ﷺ يشتكون إليه قلة الثمر. قال: ما السبب؟ قالوا: نرى أن ذلك لأنك نهيتنا عن تأبير النخل، فلم نؤبرها. فقال ﷺ: إنما أنا بشر مثلكم، وأنتم أعلم بأمور دنياكم، فافعلوا في أمور دنياكم كما تعلمون (مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً). فثبت بذلك أن النبي ﷺ لم يكن عنده معرفة شخصية بهذا العلم، فأخبره الله تعالى أن النباتات كلها أزواج، بل قال ﷻ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الذاريات:٥٠).. أي ليس الناس وحدهم أزواجًا، بل كل الأشياء من جماد ونبات وحيوان أزواجٌ. إن العلماء قد اكتشفوا اليوم أن المعادن أيضًا أزواج، حيث قرأت في كتاب لأحد العلماء أن "القصدير" (Tin) نوعان: ذكر وأنثى، حيث يتأثر الواحد من الآخر ويتشكلان بشكل آخر؛ ولكن الله تعالى يزيد على ذلك ويقول: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، وكلمة

﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ تشمل النبات والحيوان والجماد وكل ذرة من العالم ومجموعة ذرات العالم. وحيث إن الله تعالى يعلن: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ فهذا يعني أن كل ما سوى الله تعالى زوجان، وأنه من المستحيل أن يأتي شيء ما بنتيجة مرضية بدون زوجه.

وكما أن الله تعالى قد جعل كل شيء في العالم المادي زوجين، كذلك قد جعل الله للروح الإنسانية في العالم الروحاني أيضًا زوجًا، وهو فضل الله ورحمته، فما لم يصحب فضلُ الله الروحَ الإنسانية لن يكون هناك أي نسل روحاني. أتذكر جيدًا رؤيا رأيتها في أيام طفولتي، وهي أنني موجود في مدينة "أمرتسر"، وأن هناك تمثالاً للملكة مصنوعًا من المرمر، قاعدته مرمرية وسُلّمُه أيضًا مرمري. ورأيت على أدراج السلم طفلاً واقفًا في ثياب نظيفة وجميلة جدًّا يبلغ من العمر قرابة ثلاث أو أربع سنوات، وهو يرنو إلى السماء، وأظن في الرؤيا أنه المسيح. وبعد قليل انشقت السماء ورأيت شيئًا يخرج منها ويطير إلى الأرض، وكان ملففًا في لباس زاهي الألوان، وكانت له أجنحة يطير بها. وفهمت في الرؤيا أن الشيء الطائر هو السيدة مريم. وعندما نـــزلت وضعت أجنحتها على الطفل كما تغطي الدجاجة فراخها بأجنحتها، وعندها جرت على لساني الكلمات التالية: Love creats love .. أي أن الحب يخلق الحب (جريدة "الفضل" قاديان ١٥ مارس/أذار ١٩٣٠ ص ٩). وعندما استيقظتُ فهمتُ أن مريم التي رأيتها في شكل الأم هي محبة الله، والمسيح هو إنابة الروح الإنسانية إلى الله تعالى، ذلك لأن إنابة الروح الإنسانية إلى الله تعالى تؤدي إلى ولادة كائن روحاني يحبه الله تعالى كما تحب الأم ولدها. ذلك لأن الله تعالى لا يحب الأجسام وإنما يحب الأرواح، والكائن الروحاني الذي يخصه الله تعالى بحبه يتولد نتيجة الاتصال برحمة الله تعالى، ويكون الله له بمثابة الأم للولد.

هذا هو الدرس الذي يلقّنه الله تعالى الكافرين في هذه الآية حيث يقول ألم ينظروا إلى الأرض كيف خلق الله فيها أزواجًا جميلة، ليدركوا بذلك أن الله تعالى كما خلق لكل شيء في العالم المادي زوجًا كذلك فإن روح الإنسان بحاجة إلى زوج لانكشاف الكفاءات الكامنة فيها، وهذا الزوج هو رحمة الله تعالى. فإذا كان

الكافرون يريدون لهم نسلاً روحانيًا فعليهم أن يتمسكوا بيد رحمة الله التي قد ظهرت لهم في شكل محمد رسول الله، وإلا سيظلّون محرومين من النعم الروحانية التي يوزعها محمد شأنَ المرأة العاقر التي تظلّ محرومة من الأولاد.